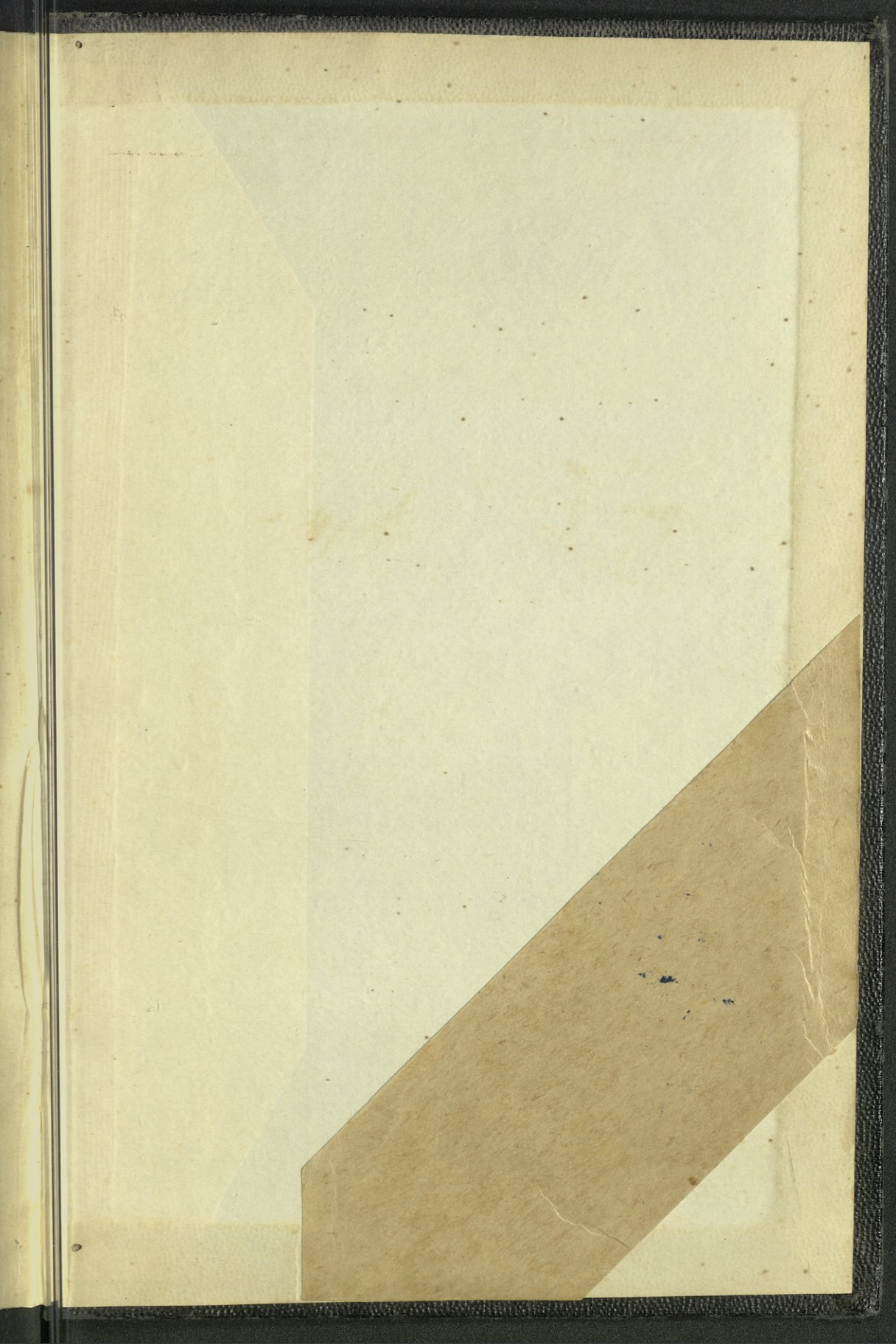
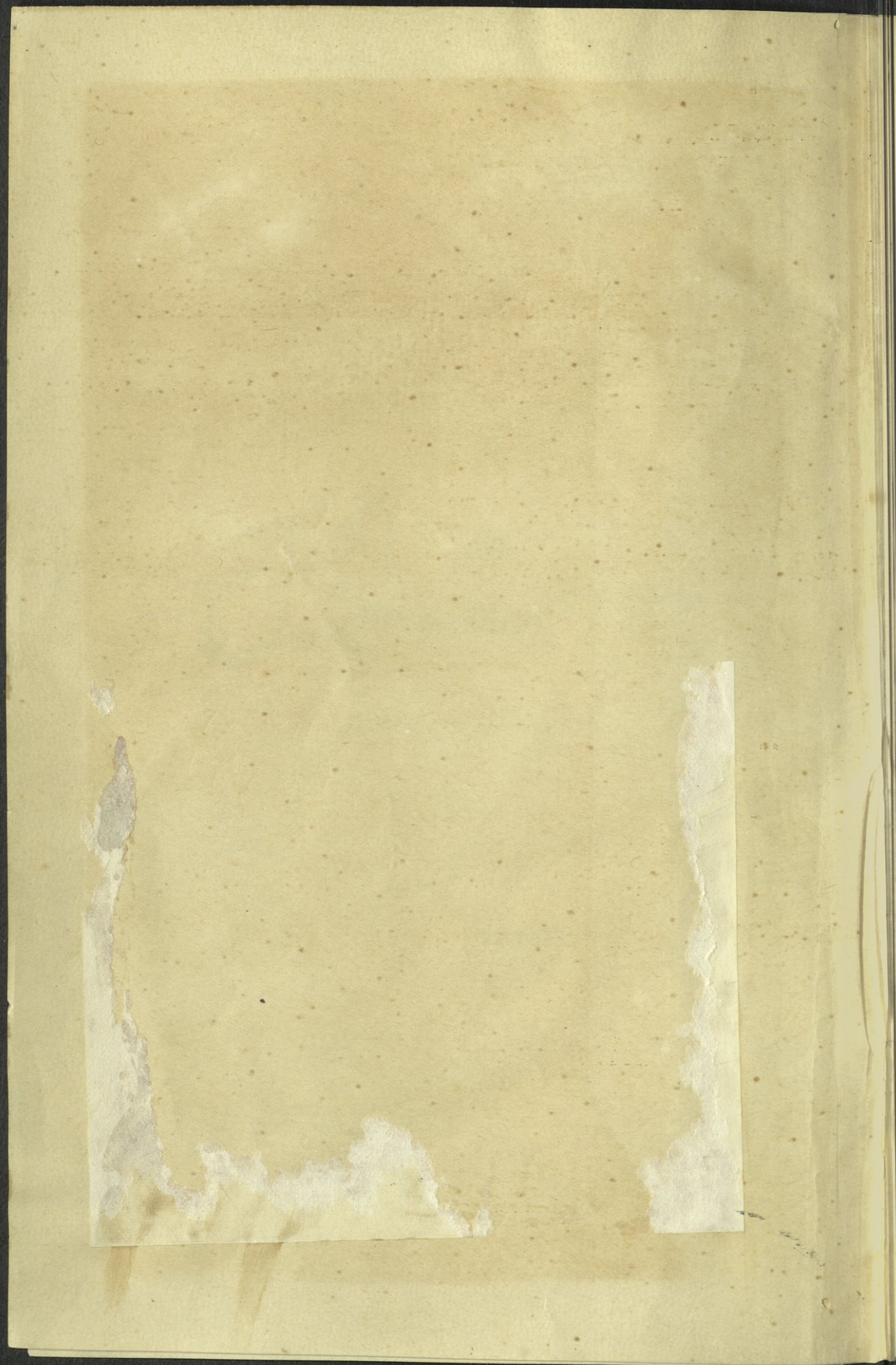






74
75A

Car. Sept. 1943



892.74

M678A

ابراهيم المصري

892.78

M678A

C.1

صَوْتُ الْحَمِيلِ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٣٤

58801

ملتزمة نشره

مكتبة سبابا ومطبعتها

٤٩ شارع الفجالة بمصر

Cat. Sept. 1943



28801

كلمة الناشر

الى القراء الكرام

أقدمنا خدمة للنهضة الادبية في مصر على طبع كتاب «الفكر والعالم»
للاستاذ ابراهيم المصرى فكافأنا الجمهور بالاقبال عليه حتى أوشكت أن
تنفذ النسخ المعدودة الباقية منه

ولذلك تشجعنا على طبع هذا الكتاب وكلنا أمل في أن نلقى من
جمهورنا الكريم نفس العطف ونفس المؤازرة كي نستطيع المضي في
طريقنا وطبع طائفة أخرى من أعمال كبار كتابتنا

خليل سابا

صاحب مكتبة سابا بالقجالة

مشالنا الخلد

مايكنا امارتنا والا

والله اعلم بالصواب والى الله المرجع والمآب
ان الله اعلم بالصواب والى الله المرجع والمآب
عن خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

عن عائشة بنت ابي بكر رضي الله عنها
عن ابي هريرة رضي الله عنه
عن ابي ذر الغفاري رضي الله عنه

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله

تقدمة

هذه مجموعة من الدراسات والمقالات أعتقد أن فيها طائفة من
الخواطر والافكار تعبر عن بعض نزعات الجيل الحاضر سواء أفي
مصر أم في الخارج . ولهذا أرى واجبا على أن أقدمها لخواني من
شباب هذا الجيل عسى أن يلمحوا فيها قبساً من ذلك النور المنبعث منهم
والذي يجب أن نستضيء به جميعا في طريقنا الجديد نحو الحياة المثلى

ابراهيم المصري

للمؤلف

الادب الحى

الادب الحديث

الفكر والعالم

Book

Chapter

Section

Page

بينى وبين نفسى

يلوح لى أن أولى الدراسات وأحقها بالعناية وأخلقها بالاهتمام دراسة الإنسان

أن أبحث عن نفسى وأن أعثر فى النهاية عليها . هذا مايجب أن أتوخاه من جهودى الروحية المتواصلة ومايجب أن يتوخاه كل فرد غيرى . إذ فى ضميرى الشخصى يتكون ضمير العالم . ومن فكرتى الشاردة البسيطة تنبثق الفكرة الكلية الكاملة .

على أنه من المستحيل على أن أنمى قوى ذاتى بدون حرية .
إن الحرية هى الحافز الأكبر لكل حركة من حركات الحياة ولكل لمعة من لمعات القلب والعقل

إنها تقصينى فى الظاهر عن الناس وتسمح لى بأن أظل « أنا » وتبقى فى نفسى على ذلك التباين والتمايز والتناقض والاستقلال الشائع فى فكرى وإحساسى والذى أتوهمه شراً بينا هو الخير كله وفقراً بينا هو الغنى بعينه !
لا تتفق الحرية والخضوع للعرف السائد ولا تقبل الحرية الفضائل والردائل المصطلح عليها

ولكن هل الحرية هى الفوضى ؟ . وهل يجب على المخلوق الحر أن يهزأ ويستخف بالفضائل والردائل جميعاً ؟ . لا أعتقد ذلك البتة

قد تكون الفضائل والردائل أشياء نسبية ولكن فى وسعى أن أهمها

قدرة الخير والشر بحسب الوجهة التي أوجبهما نحوها واستناداً إلى معرفتي
بها ورقابتي الدائمة عليها وحرصى على تحليلها وإدراكها
ولن أعرف حقيقة الفضائل والردائل ، وجوهر الخير والشر حتى
أسود نفسى !

ينبغى أن أنظم قبل كل شئ ميولى وأهوائى وأستشف بواطنها وأتغلغل
في ثناياها وأطل ألحقتها بالتأمل والملاحظة والتجربة والتفكير حتى أهتك
الستر عنها وأستوضح خفاياها ، ومتى استطعت إخضاعها ووقفقت إلى تنظيمها
أدركت سر جميع الميول والأهواء وتبوأ عرش العقل وتسمنت ذروة
الحكمة وانكشف أمام بصرى المشهد الانسانى برمته !

ولكن لاسيلى الى هذا التفوق بغير الارادة ،
ولابد للارادة كي تعمل من عقل متوقد نابه يقظ .

غير أن العقل عدو الارادة ، العقل درجات ونسب . مد وجزر . إقدام
وإحجام . أما الارادة فوحدة حية . قوة دائبة العمل قد يشلها العقل المتردد
إنهى تشبثت به أبدا . وقد يسخر منها فى النهاية ويذلها ويفرض عليها ضربا
من الحكمة النفعية الشاحبة الصفراء . وكثيراً ما تكون حكمة العقل عجزاً
وأناية ونفاقاً وجبناً !

إذن فلتنتطق إرادتى ولو بأيسر حظ من العقل ؛ إذالمهم أن تعيش وتنمو
وتنتج لأن تستطيب التلكؤ والتباطؤ والتردد ولو صحبة عقل عبقرى !
ولكى تحيا هذه الارادة وتزهر يجب أن أستمدلها القوة من عنصرها
نفسه أى من الحركة

يجب أن أروض شخصى وأروضها على تمارين يومية محددة . وبرامج
دورية معينة . وخطط مرسومة واضحة . وطرائق فى العمل والتفكير ثابتة .
وغايات فى الحياة مرصودة فى لوح الأمل العريض !

ولتحقيق هذا يجب أن أحارب ميولى وأهوائى لأفهمها وأكبحها .
يجب أن أحارب نفسى يجب ألا تكون هناك حرب إلا ضد نفسى .
ويجب ألا أخشى غير نفسى ويجب ألا أفجر القوة إلا من نفسى . ويجب ألا
أحس حقائق الكون إلا عن طريق معرقى نفسى !

لا وزن لأية حقيقة تجيئنى من الخارج . فاذا لم أكتشفها بعد جهد وصبر
طويل كان وجودها وعدمه سواء .

إن عقيدتى التى لا أرتاب فيها هى أن المعرفة تجربة .

ولقد اتفق لى مراراً عدة أن اتصلت بقوم طالما تغنوا بما فى التواكل
من راحة وصفاء . وطالما أغرونى بالقاء السلاح وطرح عدة الجلاذ والكف
عن الحرب واستقبال الحياة . حلوها ومرها ، شرها وخيرها . بابتسامة
العبت والترفع والتهكم والازدراء

قالوا لى : ان السعادة فى قتل الأمل . وإخماد الرغبات . وطرده شبح
المستقبل . وان لا هدوء مع الطمع . ولا سكون مع المعرفة . ولا استقرار
مع الارادة . ولا فائدة من السعى والألم والجهاد

وأوشكت ان أعنو لهم واطمئن لفلسفة زعموا أنها روحية وأنها
شرقية وأن فيها الخلاص

ثم تلفت حوالى وهبطت بأبصارى الى قرارة نفسى وإذا بعقلى ينضب
شيئاً فشيئاً ويستحيل إلى صحراء . وقلبى يتعفن وينقلب من مقدس الى مرعى
ديدان ، وساعدى يفتر وهمتى تتراخى واحساسى يتبدل وشخصى كله ينكمش
ويتضاءل ككرة تتقاذفها فى شماتة وسخر أيدى الآقدار

شعرت أن بينى وبين ذاتى القديمة كما بين دم الشباب المتقدودم الشيوخة

الآسن المكفر وخيل الى انى مت . وان السعادة التى كانوا يلوحون لى بها
ليست فى الحقيقة غير سعادة الموت .

وسرعان ما أفقت من غشيتى وتفقدت وجودى واستجمعت حواسى
ودمى ومضيت أضرب فى عرض الحياة باحثاً عن أثقل الجهود عبثاً وأصعبها
تحقيقاً وأشقها ألماً وعذاباً كيما أحملها على كتفى وأرصد من أجلها حياتى
وأضطاع بها بمفردى !

وهكذا عدت إلى حياتى الأولى . ولشد ما أنا اليوم سعيد بها ولو أنى
كالجندى المجاهد شاهد مائة معركة ، وما يزال يصبو الى القتال بجسم مشوه
وأعضاء مبتورة وجراحات مجيدة ان هى استنفدت بعض قوى البدن فقد
ضاعفت وألهبت قوى العقيدة والروح !

البطولة والعظمة

ليست البطولة في أن تقدم على عمل لا تسكاد تحقق جزءا منه حتى تقنع به وتستريح اليه وترقد مطمئن البال سعيدا بما عقد فوق رأسك من أكاليل ، بل البطولة كل البطولة في أن تحرر نفسك من مغريات المجد الناقص ومفاتيح النجاح المبتور ، وأن تمضي في سعيك وتضحياتك غير حافل بما أصبت من نصر جزئي خلاب حتى تستكمل العمل الذي من أجله بدأت جهادك وعندها فقط تخول نفسك حق المتعة والهدوء

وكثير من الأبطال أو العظماء من أخذتهم نشوة النجاح الجزئي فجمدوا في وسط الطريق ، وقعوا بما أحرزوه من فتات المجد . فانقلب جهادهم في سبيل مثل أعلى إلى جهاد في سبيل النفس والسلطان والظفر بأوفر قسط من نعيم هذه الدنيا .

أولئك هم أشباه الأبطال والعظماء قد تعود جهود البعض منهم على المجموع بالنفع ولكنهم في معظم الأحيان يعطلون هذا المجموع ويعوقونه عن مواصلة السير لتحقيق ذلك المثل الأعلى

والبطل أو العظيم الذي لا تغرر به تهاويل أنصاره ، ولا تؤثر في شخصيته سموم المديح . ولا تخدعه مظاهر الاحترام والاحلال والتقديس ، البطل أو العظيم الذي يعرف ما قام به وما بقى عليه أن يقوم به فيدأب على الكفاح ليل نهار حتى يتم رسالته أو يذهب لها فداء ، ينبغى فوق عبادته المثل الأعلى أن يكون موفور قوى التجرد ، زاهدا في كل شيء ، أصفى

من الانسانية العادية معدنا ، وأشد في الولوج بالفكرة جنونا ، وأرسخ
في التضحية قدما ، وأمضى في الحق عزيمة وسلاحا
بل يجب أن يمثل في رأي صوفية العمل ، كما يمثل المؤمنون الأحرار
صوفية الدين !

فالعامل عقيدته ومذهبه ، والعمل لذته وملاذه ، وبالعامل يحيا وللعمل
أيضا يموت !

ومما لا يقبل الريب أن لكل بطل أو عظيم فترة من فترات حياته تستحيل
فيها الدنيا أمام أنظاره إلى شيء مبهم عجيب سخي لا قيمة له ، فينتابه
الشك في أعماله وجهوده ، وفي تقدير الناس لها ، وفي إمكان إصلاحهم بها ،
فيستخط على جحودهم وغدرهم وعدم اكتراثهم ، فتعصف به
عواصف التردد والإحجام ، وتستيقظ فيه عوامل الأنانية ، وتدب في قلبه
الحسرة على ما فاتته من متع ، ويعز عليه أنه جاد ويجود بالنفس والنفيس من
أجل انسانية وضیعة الفطرة متقلبة الميول محدودة المدارك . وعندها يأخذ
(شيطان الظهر) كما يسميه « بول بورجيه » في الطواف به محاولا التسلط عليه
والتراجع به وحفره لتدمير البناء الذي شيده بعقله ودمه .

وشيطان الظهر هو ذلك الاغراء المعنوي الحسى العنيف - الاغراء بفكرة
بطلان العمل وشيوع العدم في كل شيء وإثارة المصلحة الخاصة على المصلحة العامة -
ذلك الاغراء الذى يبتلى به البطل أو العظيم في ظهر حياته - أى في منتصفها -
فيطوح به أن كان ضعيفا وتبديد مؤثراته بعد صراع طويل أن كان ثابتا قويا
ومقياس البطولة والعظمة هو فى التغلب على هذا الشيطان وطرده
والاستمرار على الايمان بأن فى العمل خصوصية ، وفى الفكرة المراد تحقيقها
فائدة ، وفى التضحية خيرا ، وفى الانسانية الوهية ، وفى الجهاد المتواصل لذة
لا يمكن أن تعد لها لذة !

والواقع أن اتجاه فكر البطل أو العظيم نحو الغاية التي ينشد لها وإغضائه عما سواها وملاحقته لها وإصراره على الفوز بها « كاملة » ولو هلك دونها ، لمن أبلغ الظواهر في الدلالة على خلق توافرت فيه شروط التجرد والصوفية التي هي على الدوام أهم شروط العظمة !

ومن الواضح أن الطبيعة تخير الشخصية الفذة بين عالم المادة وما فيه من مباحج ومناعم ، وعالم الفكر والجهاد وما فيه من ألم وحرمان . والبطل أو العظيم لا يختار عالم الفكر ولا يؤثر الجهاد ولا يطمح إلى المثل العليا إلا ليتصل بالخلود وهو بعد على هذه الأرض ، إذ عالم الفكر والجهاد خالد أبدى لا أحد له كعالم الروح سواء بسواء !

ومن هنا تنشأ تلك السعادة التي نغبط عليها العظماء ولا نفهم سرها . فهم سعداء لأنهم يتعجلون خلودهم ويعيشون بيننا كما يعيش المؤمنون المخلدون في جناتهم ، يغدون ويروحون في جوّ روحي خالص يخضع له الجسد وتتضاءل حيال سلطانه قوى الغرائز النفعية الحيوانية العمياء !

تسليم الى الشباب

كلما خلوت إلى نفسي وقارنت بين ما كانت عليه بلادي وما وصلت إليه
وساورتني الشكوك في مستقبلها وأوشك اليأس منها يحتل قلبي ويفتن في
تعذيبه كداء عياء . هرعت لفوري إلى مجتمع يضم طائفة من الطلبة فجلست
اليهم واستمعت إلى أحاديثهم واشتركت في جددهم ومزاحهم ، وإذا بالسحب
المنعقدة في جو حياتي تتبدد كأن لم تكن . ونفسي تشرق بغتة وعروقي
الرخوة تندفق فيها كسيل من نار دماء صحابة جديدة تستنهض مني العزيمة
وتبعث ميت الأمل وتصب في روحي من عصارة الثقة ما يغريني بالبطولة
ويخضع لي المستقبل الزاهر الذي أريد !

إن في مجالسة الطلبة لعزاء للنفس عن مجالسة الرجال وشفاء من الحيرة
وتطهراً من القلق واستخفافاً بالعقبات وتمرداً صادقاً على حكمة الشيوخ
التي أحالت البلد مرتعاً خصباً للجناء !

لقد ألفنا الحكمة وأسرفنا في تغليب العقل على العاطفة حتى جفت
نفوسنا ووهنت عزائمنا وابتعدت حميتنا وبتنا أقرب إلى الهياكل العظمية
النخرة منا إلى بني الإنسان !

ومنى ساد العقل تفشى الأحجام واستشرى داء الشك ودب الخور في
القلوب . والعجز في السواعد ، واستراح الناس إلى الحلول الوسطى وعدوا
الظفر بها فوزاً مبيناً . . .

ونحن اليوم نهتدي بهدى العقل وحده ، وتوهم ان مشاكلنا السياسية

والاجتماعية والاقتصادية قد يحلها العقل وحده لذلك نركن إلى الشيوخ فننظر إلى الحياة بعيونهم ونعالجها في ضوء أفكارهم فنحسب لكل شيء ألف حساب ، ونقدر لخطواتنا ألف تقدير ، ونظل نفكر وننعم التفكير ، حتى تضمحل منا القوى وتذوب العزائم ، ويلتهم الفكر البقية الباقية من الهمة والارادة والأمل ؛ فيتأصل الضعف في الاستفادة ويصبح العمل المثمر الجدى مستحيلا ولكن أية نهضة في العالم قامت على العقل وحده . وأية حضارة شيدت على الحق وحده . وأى حق مغتصب طالبت به الشعوب وتوسلت اليه بالعقل وحده ؟ ... إن العقل بلا عاطفة كالزهرة بلا شمس . والعين بلا نور . والرئة بلا هواء . والجسد بلا دم واعصاب وعضل !

والعاطفة أروع ما تكون ممثلة في الشباب وخير شباب هذا البلد هم الطلبة ، ولولا صدق ايمانهم وعظيم اخلاصهم واتقادعواظهم - التي يسميها المستضعفون نزوات طائشة - لكان اولى بنا ان نلحد أنفسنا ونلحد البلد معنا ونقول العفاء على كل شيء .

غير أن الطلبة أحياء . بل لقد اجتمعت فيهم واحتشدت في صدورهم خلاصة فضائل الحياة . فهم لا يعرفون الغرض ولا تستهويهم المصلحة . ولا يمكن ان يلوح لهم بالمنصب أو المال - ابدا نزاعون إلى المثل العليا ولو ذهبت أرواحهم لها فداء !

ان النهضة الوطنية في مصر قامت على اكتافهم ، وكذلك النهضة الفكرية فهم الذين يبرزون في الطليعة ساعة الجهاد ، وهم الذين يطالعون ويتأملون فيما يكتب المفكرون والأدباء .

وإذا كان رب العائلة من موظف أو تاجر أو صانع قد أنهكته شواغل الأسرة وصرفت إليها جل اهتمامه ، فالطلبة هم عشاق المبدأ لذاته ، والثقافة لذاتها ، والعدل والحرية لوجه الله والوطن !

وهاهم اليوم بعد أن اثاروا النهضة الوطنية وانشأوا النهضة الفكرية قد اعزموا الاضطلاع باعباء النهضة الاقتصادية أيضا
ولقد مر بي اليوم واحد منهم وخاطبني بشأن عدد من أعداد إحدى الصحف مخصص للدعاية لمشروع القرش ولم يطلب إلى في رجاء وأدب كما هي العادة أن أكتب مقالا فيه ، ولكنه أمرني أمراً كمن يوقن بأن لا قبل لي بالاعتراض عليه . وان جهدي لا شيء إذا قيس بجهد الجماعة ونفعها ، وإني يجب أن أطيع فأكتب كما قد أطاع هو بالترويج للدعوة وحمل الأعداد تحت إبطه وتوزيعها على الناس في غير تردد أو استحياء !

ووالله لقد أحسست بضآلتي وعظمته ، وغنوت له وشعرت في تلك اللحظة فقط بلذة التضامن في الطاعة من أجل تحقيق فكرة !

هذه اللهجة الخشنة الآمرة . هذه الروح الصلبة الصادقة . هذا الامتثال المشرق المستمد من خالص الايمان . بل هذه العزيمة الصارمة التي لا تقبل في العمل لا جدلا ولا تسويقاً ، هي من خصائص الطلبة دون سواهم ، وهي التي تحتاج إليها مصر اليوم كي تخرج فائزة من المحنة التي يبلوها بها القدر .
والسر كل السر في أن نعرف كيف ننتفع وننتفع بهذه العواطف ، كيف نشيعها في كيانتنا ونشرها نفوسنا . ونجملو بنارها صدأ عقولنا . بل كيف نضع العاطفة المؤمنة فوق العقل المتردد المتشكك بحيث تتقدم ورائدنا هذا الشباب الطامح إلى تحقيق ما هو خليق بنا من عظام .

فلننزل على حكم الشباب . ولنسلم الأمر إلى الشباب . فقد أعيتنا حكمة الكهول حتى لتكاد تردينا مورد التهلكة !

الكهول والشيوخ قد طغوا على هذا الوطن .

الكهول والشيوخ كادوا يسممون روح الوطن .

الكهول والشيوخ ينعبون كالبحر فوق ما كدسوه من خرائب على أرض الوطن !

في عنق الكهول والشيخوخ أربعة عشر عاما من زهرة عمر الوطن
انفقناها في التكاليف على المصلحة الذاتية وشهوة الكلام .

تسليم ! تسليم إلى الشباب . ذلك هو شعار عصرنا !

الشباب هم اليوم قادة كل أمة ناهضة . الحياة في إيطاليا من روح
الشباب . والحياة في ألمانيا من عزم الشباب . والحياة في أسبانيا من دم الشباب .
والحياة في روسيا من قلب وعمل الشباب !

قد يكون من الشباب في بعض تلك الأمم من يؤيد الرجعية ، ويقدم
الديكتاتورية ، ويسعى لهدم الحرية .

لا شأن لنا بهذا . فالوسائل والغايات تختلف باختلاف الأمم والظروف .
وانما العبرة بارادة الحياة المتمثلة في أولئك الشباب والتي في وسعنا اضرار
نارها في صدور شبابنا كيما نتجه بهم في السبيل الصالح لنا والذي سلكته
أعظم أمم العالم قبلنا أي من الرجعية إلى التقدم ومن الديكتاتورية إلى
الديموقراطية ومن الاستعباد إلى الحرية !

تسليم ! تسليم إلى الشباب في سبيل الحرية ! هذا ما يجب أن يكون
شعار مصر الفتاة !

وليعلم كل شاب سواء أكان طالبا أم غير طالب أن الساعة ساعته وأن
مصير أمته بيده . وأنه مطالب باستطراد العمل في شتى ميادين الجهاد من
سياسية واقتصادية وثقافية ، وأنه لم يكن في فجر النهضة عظيما إلا ليصبح
اليوم وفي الغد أعظم !

وما دام المستقبل هو نتاج الحاضر والحاضر في حاجة إلى عزم الشباب
فالشباب العاملون ليسوا برجال المستقبل فحسب ، ولكنهم رجال الحاضر أيضاً .
لذلك يجب أن نوليهم قيادنا وتبعهم . وما ضل من اتبع الصدق والأمل
والإيمان !

✓ جسيم المثقفين

ليس في مصر ذلك التلاؤم بين مختلف الطبقات الذى يجعل الحياة فيها ذات وحدة اجتماعية بارزة . وصبغة فكرية وروحية واضحة المظهر متسقة الألوان .

فطبقة الفلاحين والعمال ما تزال تعيش في العصور الوسطى ، وطبقة الأغنياء معلقة بين روح البير وقراطية الشرقية التى خلفتها وما تزال تنميتها أنظمة الحكم الاستبدادية ، وبين روح الديموقراطية الحديثة .

والطبقة المتوسطة التى استيقظت فجأة على حياة جديدة شبيهة بالأوربية فاضطربت دعائمها وعصفت بها غرائز الماضى وتقاليده وقوانين الحاضر وإحتياجاته والأمل فى مستقبل عادل مجيد ، يحول بينها وبين تحقيق ذلك الأمل سلطان البير وقراطية الاستبدادية التى ترزح البلاد تحت وطأتها .

ثم طبقة المثقفين الأحرار الذين يعيشون — علما وفكراً وإيماناً وروحاً — فى القرن العشرين بينا بلادهم متأخرة عنهم أكثر من ثلاثة قرون أو أربعة .

وهؤلاء هم الذين نعيمهم بمقالنا هذا وهم الذين يعيشون اليوم فى جحيم ! فالبعض منهم رحل إلى أوروبا أو أمريكا وتلقى العلوم هناك وشاهد الحضارة فى أتم مظاهرها . وتشربت نفسه نزعاتها وميولها . والبعض الآخر بقى فى مصر ولكنه اتصل بالغرب عن طريق الدرس والتحصيل فتكونت

له عقلية جديدة ارتقت به فوق مستوى وسطه وألحقته بالعالم الأوربي والأمريكي .

هذه الطبقة تشعر بالفارق العظيم بينها وبين سائر الطبقات وترى الهوة التي تفصلها عن مجموع الأمة وتحس نفسها منبوذة وحيدة يخشاها البيرقراطيون المحافظون وتسخر منها الطبقة المتوسطة . ولا يفهمها سواد الشعب .

ومن نكد طالها . أن الثقافة تخلق فيها ضرباً من النزوع إلى المثل العليا والتطلع إلى الكمال يزيد جهل الوسط المحيط بها قوة واضطراباً . فهي تود أن ترقى به إلى مثلها الأعلى ، وهو يود أن ينحدر بها إلى مستواها العادي . وهي تريد أن تندمج فيه وتدججه فيها وهو يعمل على نبذها عنه .

وهي تجتهد في إشعاره بنقصه وإرشاده إلى مواطن ضعفه وحشد قواه للخلاص منه وهو يأبى إلا أن يعد هذه الرغبة تحدياً ومروفاً ، بل ثورة جديدة بالسحق دون رحمة . وقد يتفق أن تجمعك المصادفة ببعض أفراد هذه الطبقة فلا تسكاد تجلس اليهم حتى تسترعيك منهم عيونهم اللامعة ووجوههم المحتقنة ولونهم الشاحب وجباههم المغضنة ومظهر الكمد الخفي المتمكن من نفوسهم ثم تهب حولك فجأة ريح الجدل فترتفع الأصوات وتبع الحناجر وتنهل عبارات السخط والتبرم تصم الآذان وتشعر المرء بما في هذه الصدور الفتية من قوى محتجزة لا تجد لها في الحياة اليومية منصرفاً ينفس كربتها ويشفي غليلها وما أن تهدأ العاصفة وتفترحى الجدل ويعود كل منهم إلى شخصيته العادية ، حتى تلمح في حركاتهم وسكناتهم تلك الرخاوة العابثة الحزينة الدالة على السأم وعدم الاحتفال .

وهكذا تعيش هذه الطبقة المثقفة على هامش الحياة المصرية في عزلة موجهة فاجعة لا يستجيب لها شيء ولا ترضى عن شيء ولا يرضيها شيء .

فهى تطلب الحرية فتصطدم بحكومة تناهض الحرية . وهى ترغب فى الجهاد العملى للظفر باستقلال البلاد فتصطدم بالعزائم الخائرة والآيدى المترددة والخطط الفاشلة . وهى تود نشر ثقافتها ونفع الآخرين بها فتصطدم بالعادات والتقاليد . وبالأغلال تكبل حرية الفكر وتسكاد تجهز عليها . وهى تنزع إلى الاصلاح الاجتماعى وأهم نواحيه مرتبط بنهضة البلد السياسية التى تخاذلت فى الطريق وأوشكت أن ترجع إلى الوراء نصف قرن .

هذه العوامل مجتمعة تزيد فى بؤس الطبقة المثقفة وشقاها وتوسع مسافة الخلف بين الواقع وبين احلامها وتبليها بضرب من الكآبة والحسرة سرعان ما يستحيل إلى يأس عميق يشل منها القوى

فمصيبتها أنها لا تفك تقارن بين ما هو كائن وما يجب أن يكون . بين ما يعتلج فى صدرها من عظام وبين ما يكتنفها من سخب وغباء فكأننا حررناها لتشهد بأعينها مصرع الحرية . وكأننا علمناها لتشهد بأعينها مصرع الفكر . وكأننا ربيناها وثقفناها لتخفق جهودها فى صدرها فلا هى منتفعة بها ولا هذا الوطن المعذب

ولقد أخذت تبدو على هذه الطبقة من جراء ما تقدم أعراض داء وبيل ان نحن لم نسرع الى لفت النظر اليها والتحذير من عواقبها تأصل الداء واستفحل وقضى على هذه الطبقة الممتازة شر قضاء .

وهذه الأعراض هى الذل والجن والأثرة وتحويل أغراض الثقافة من خدمة عامة إلى مصلحة خاصة تنشد المنصب والثروة ولو على انقاض البلاد ونحن كثيراً ما نشاهد ذلك نفر من المثقفين الذى كان ممثلاً بالأمس حمية وحاسة يشكو اليك عقم الاصلاح فى هذا البلد ويفخر بياسه وعجزه ويصارحك فى غير تورع ولا استحياء لم يعد غيباً كما كان بالأمس وأنه إنما يخدم اليوم نفسه لأن البلد لا يريد أن يخدمه أحد !

ذلك هو الداء الذى يفتك اليوم بجزء كبير من أفراد هذه الطبقة ، ويكاد يحصد البقية الباقية منهم

ولكن اذا كان المثقفون يعيشون اليوم فى جحيم فهل معنى هذا أن من واجبه المثار لأنفسهم على حساب البلد ؟

أو هم يظنون أن المعرفة والكفاءة ان لم تسد فمن حقها أن تتراجع وتنقلب الى أنانية جنائية ؟

أو هم يرون أن الامة يجب أن تسهل لهم سبيل العمل والحرية والا كانت هى المسئولة عن فقدهم ؟

ما تلك فى الحقيقة الا حجة الضعاف منهم والمهزومين

فى رأى أن الثقافة هى التى يجب أن تشق الطريق إلى الحرية . والمثقفون هم الذين ينبغى أن يتقدموا الصفوف ويبرزوا فى الطلائع ويدافعوا عن الفكر بعقولهم ويحموه بصدورهم ويذلوا فى تحريره كل مرتخص وغال . واذا كان الفارق العظيم بين الطبقة المثقفة وبين سواد الشعب يجعل من حياتها جحيماً فمجدها فى ألا تتخلف وفى أن تقرن جحيم الاحتمال بجحيم الصبر والجلد والمقاومة

وجحيم المقاومة هو النعيم بعينه وهو الطريق الفرد لخلاصها مما تعاني ، ولتأدية الرسالة التى حملتها إياها المقادير .

نحن فى بلد لا سبيل إلى انهاضه بغير جهود الطبقة المثقفة .

فلتعلم هذه الطبقة أنها خاسرة أولاً وآخراً وانها لن تلقى على جهودها جزاء ولا شكوراً .

لن يعنى بها اليوم أحد . ولن يقدرها اليوم أحد . ولن يعضدها اليوم أحد .

فلترض بمجد التضحية الكاملة إذن ، ولتؤمن بخصوبة هذه التضحية فى المستقبل القريب أو البعيد .

المتعلمون والشعب

تصطنع مصر الحضارة الغربية . وترسل بأبنائها الى مختلف بلاد أوروبا وأمریکا يتلقون العلم على أهله ويتصلون بروح الحضارة فى مستقرها ويوقفون بأنفسهم على شتى مظاهرها الخلقية والثقافية .

ثم يعودون إلينا لتجديد البيئة الشرقية وحرارتها حرائة جديدة . لهدم الفاسد من النظم وبناء الصالح منها ، للاندماج فى طبقات الأمة اندماجاً عملياً ونشر مبادئ الحرية والعدل بين سواد الشعب .

هذا واجبههم فهل هم يؤدونه على خير وجه . وهل نلهم فى حياتنا اليومية أثرهم الفعال . وهل نحس فى أخلاق هذا البلد وعاداته ونظمه تلك الوثبة العنيفة التى يحدتها غليان الفكر والشعور فى نفس الطبقة المتعلمة ؟

ليس من ريب فى أن البلد ناهض . وأن النهضة المصرية كسائر نهضات الشعوب الناشئة تسرى عليها أفاعيل المد والجزر ، فتارة تتقدم وأخرى تتراجع . ولكن هذا التأرجح بين الارتقاء والتقهقر . هذا الاضطراب بين القديم والجديد . هذه الحركة المطردة نفسها هى مظهر القوة وعنوان الحياة وإذن فالنهضة قائمة . والشعور بها متأجج فى الصدور . ملازم خيالات

المصلحين يبرح بهم ويقض مضاجعهم ويصليهم مر العذاب .

لا أنى أود أن أصارح نفسى والقراء بأن هذه النهضة مازالت حتى

الساعة منبعثة من الرؤوس للرؤوس . صادرة من المتعلمين للمتعلمين أى
المصلحة طبقة واحدة هى طبقة أهل المدن وأهل الريف المترفين .
والمسؤول عن هذا هم بعض المتعلمين أصحاب الثقافة الغربية أو أدياؤها .
ونظرة واحدة على حياتهم تقنع القارئ بصواب ما أرمى إليه .

يقصد الشاب المصرى منهم أوربا فيتخصص فى فرع من العلوم . ويحصل
على شهادة . ثم يرجع إلينا وقد فتنه من الحضارة الغربية طلاؤها الظاهرى .
وزخرفها المائى . وشقى وسائل النعيم التى أبصر القوم هناك يستمتعون بها
ويقدم لهم منها الرقى الصناعى ألوانا مختلفة كل يوم .

يرجع إلينا هذا الشاب وملاء نفسه الامل باستغلال علمه فى سبيل أن
يحيا فى مصر حياة المرفهين فى أوربا . فى سبيل أن يصبح موظفاً ناجحاً
يتحدث عن الدرجات ويرتقب العلاوات ويتطلع إلى منصب قاض أو وزير .
فى سبيل أن يصبح رجلاً (بورجوازيًا) كاملاً مطمئناً على عيشه ، مستوفياً
حاجاته المادية . آمناً شر الفاقة . خاضعاً للنظام والعرف . يتجنب المصارحة
بآرائه الجديدة . ويخشى الافضاء بنزعاته الحرة . مخافة أن يصطدم بالتقاليد
السائدة فيتهدد مركزه ويتبدد النعيم المادى الذى يسبح فيه

هذه الحياة تولد فى نفس هذا الشاب ضرباً من الأنانية الخطرة . والجبن
الحقير والنفاق الممقوت .

فهو يتعلم ليصبح موظفاً . وهو يتوظف ليصبح من القادة . ومتى أصبح
منهم . وانخرط فى سلوكهم واتصل بهيئة الحكام خضع لطبقته . وانضوى
تحت لوائها والغى عقله واحساسه دفاعاً عنها . وانقطعت الصلة بينه وبين
نفسه وبينه وبين سواد الشعب .

قد يكون هذا الشاب موسراً فى وسعه الانصراف إلى الأعمال الحرة

والاحتفاظ بفكره خالصاً من شوائب الكذب والرياء ، وخدمة بلاده خدمة
نزيهة صادقة ، ولكنه كثيراً ما يؤثر المنصب على العمل الحر . إذ في المنصب
لذة السيادة والحكم التي يتوهم بعض المتعلمين في مصر أنها هي التي تتفق مع
ماللعلم من مكانة وساطان ، وهي التي تتناسب مع استقرارية العلم واستقرارية
المال .

فليس المنصب في نظر أولئك المتعلمين إلا وسيلة من وسائل السيادة .
وملجأ يستريحون فيه بعد عناء التحصيل . يستريحون ويستمتعون بأقل مجهود .
وإن من كان هذا مثله الأعلى ليس في مقدوره على الإطلاق التخلص
من مؤثرات الطبقة التي تحمقه له وتمنحه إياه .

فهو يجتهد في حمايتها برغمه . يتشيث بعاداتها ، ويروج لآخلاقها ، وينذود
عن تقاليدها . وينسلخ عن مجموع الشعب شيئاً فشيئاً لينزاد ارتباطاً بها .
وهذا هو الواقع الآن .

فالفريق من المتعلمين الذين ذكرت لا سيما بعض المثقفين منهم في
مختلف جامعات أوروبا وأمريكا قد انضموا بدافع المصلحة وتأثير البيئة
التمولة التي أنشأتهم وأنفقت على تعليمهم — إلى طبقة الموظفين
والموظفين فقط . بل هم اليوم قد ألفوا طبقة ممتازة تعيش على هامش الحياة
المصرية وتمثل أنايتها الخطرة في السعى إلى ما يعود عليها وحدها بالربح
الوفير .

ونحن في حديثنا عن هذه الطبقة لا نوجه اللوم إلى الموظفين ولا نقصد
اتهمهم ولكننا نغيب على بعض المتعلمين المثقفين منا عبوديتهم لفكرة
التوظيف وانصرافهم الى تأليف كتلة مستقلة لا تحفل بغير مصلحتها . كتلة
قد انسلخت و تنسلخ عن أبناء الشعب . تحيا من كدهم وكأنها غريبة عنهم .
لا تغني بهم ولا تأبه لمطالبهم ولا تحاول التعرف إليهم للوقوف على

مدى القوى الهائلة التى تضطرم فى نفوسهم . ولدراسة حياتهم العاملة المجيدة على ضوء الثقافة الحديثة والعلم الحديث دراسة وافية شاملة أساسها الرحمة والمحبة وقوامها العدل والانصاف والحرية .

وأنا أتحدى أى فرد من أفراد تلك الطبقة أن يحدثنا طويلا وفى حنكة ودراية وعمق عن حياة الفلاحين المصريين والعمال المصريين وعن واجبه تجاه ما تتطلبه تلك الحياة من إصلاح عاجل وعن جهوده هو فى سبيل هذا الإصلاح .

بل أنا أتحدى أن يجروا فيصارعوا بحساسه العميق من نحوهم . ونظراته إليهم ومعاملته لهم سواء فى البيت أم فى الديوان أم فى الطريق أم فى المزرعة . ولو فعل . لو كشف أيما إنسان بما يضره لهم . لو خلا إلى نفسه وحاسبها على عواطفها من نحوهم . لو حلل الأفكار التى تنبثق فى ذهنه . والميول التى تحتل قلبه ساعة أن يصادف واحداً منهم . بل لو أنعم النظر فى تصرفاته حيالهم وقارن بينها وبين ما يشعر به ويفعله إذ يلتقى بنفر من أهل طبقته . لو أقدم على هذا وكانت فيه بقية باقية من ضمير حى لم تخنقه المصلحة ولم يحمده حب الترف ، فقد يشعر أن بينه وبين الفرد المتحضر المتعلم الصحيح كما بين الفرد والانسان أو بين شعوب أوروبا الشمالية وقبائل الزولو .

إن الترفع والكبرياء والازدراء والاستخفاف والتحكم وعدم الاكتراث وسائر غرائز الاثرة الشائعة فى الروح البيروقراطية الشرقية العتيقة هى التى تقابل بها تلك الطبقة العصرية المثقفة أبناء الشعب . وهى التى تحفر الهوة السحيقة بينها وبينهم . بل هى التى تؤخر حركات الإصلاح فى الريف بالنسبة للفلاح وفى المدن بالنسبة للعامل .

وانه ليخيل الى أن تلك الطبقة من المتعلمين لا ترى فى مصر غير القاهرة والاسكندرية . ولا تعمل إلا على نقل الحضارة الأوروبية إلى القاهرة والاسكندرية حيث تنعم هى وينعم الأجانب ويتفق الفريقان على استغلال

موارد البلد لأشخاصهم وذويهم دون ما احتفال بالطبقات البائسة المنكوبة العاملة .

أجل لقد انقطعت الصلة بين تلك الطبقة وبين العمال والفلاحين ان جهل هؤلاء وانحطاطهم وفقرهم . وقذارتهم وتواكلهم ، كل هذه الاعراض تنفر منهم الفرد المتعلم المنتسب الى تلك الفئة . فبدل أن يستخدم عليه في التقرب اليهم والاحساس بمطالبهم وابقاظ حاسة الكرامة فيهم ومحاولة اصلاحهم ، ينطوى على نفسه ويتشبث بطبقته ويزهو عليهم وينصب الحاجز الأبدى بينه وبينهم . وهو انما ينساق الى ذلك بطبيعة حياته ونظامها . فهو يعيش في المدن . بل في الأحياء الأوربية وبين الأوربيين . يرتاد مسارح التمثيل . ويعشى دور السينما ويطالع الأدب الغربى . ويتشدد بالكلام عن كبار كتاب أوربا وشعرائها ويجادل فى المسائل السياسية بعبارات ملؤها التحفظ والحذر والجبن . فاذا ما حدثته عن المشاكل الاجتماعية وعن موقف عمالنا من حياتنا الاقتصادية وشؤون فلاحينا وآلامهم ومطالبهم أجابك لفوره أنهم سعداء بحظهم . سعداء بحملهم . وانهم هكذا عاشوا طوال السنين وانه قد يكون فى الرقى والتقدم شقاؤهم . فتحس لفورك بعمق الهوة الفاصلة بينه وبينهم . وتشعر أنه لم يفكر قط فيهم . ولم يخطرهم على باله لحظة . وأن حياته الضيقة الجوانب . المحدودة الفسحات . مقصورة على أعمال المنصب وملاهى المدن ومطالعة الصحف والروايات .

هذا ولو أنه رجع بذكريته الى ما يمكن أن يكون قد طالعه من كتب التاريخ الحديث لأدرك أن المتعلمين من شبان وبنات الروس كانوا يؤلفون قبل الحرب مختلف الجمعيات تطوف القرى الروسية وتتصل بالفلاح الروسى وتتوافر على دراسته وتتعرف الى خلقه وتستمتع لشكاواه وتعمل على تعليمه وتهذيبه ورفع مستواه المادى والادبى

بل لقد كان ابن البيوتات العريقة يخرج على وسطه ويندمج في بيوت الشعب وينزح الى الريف ويحس وهو يتجول ويجاهد ويعلم ويهذب أن من واجبه احكام الصلة بين شطرى الامة ، وتوثيق روابط التفاهم والتعاون والرقى المشترك بين الطبقات القائدة والطبقات العاملة .

أما عندنا فالويل كل الويل من المتعلم المسمم العقل والروح يوم ينقل مثلاً في وظيفة الى الريف .

أنه ليستحيل اذن عنصراً جامعاً من عناصر الاستبداد . يعد هذا التبدل في حياته كارثة . فيجف طبعه . ويغلظ خلقه ويعمد الى الثأر لنفسه من الفلاحين التعساء فيضطهدهم وينكل بهم كأنهم هم المسؤولون عن نقله وهم الذين سلبوه نعمة الحياة الناعمة في المدن . وهذا الكره لحياة الريف الناجم عن سحر الحضارة الحديثة المجلوبة الى المدن وعن افتقار فريق من المتعلمين للاحساس بما للشعب عليهم من حقوق ، يؤثر ولا شك في ثروة البلد أعمق تأثير . فأصحاب الاطيان يعيشون في القاهرة أو الاسكندرية ، فارين من قراهم تاركين مقاليد الأمور فيها لمفتشهم ونظارهم .

وهذا هو السر في أن كثير آمن المزارع الخصبة تهمل زراعتها وتزرع بأساليب سيئة فيقل محصولها بينما أصحاب الاطيان من المتعلمين حملة الدبلومات الزراعية يقنعون بايجار أطيانهم ولا يحفلون بمستأجريها ولا يشعرون بالثبته بأن لا ولاءك المستأجرين عليهم واجبات في تأديتها مصلحة لهم وللمجموع على السواء . وجملة القول ان في مصر طبقة من المتعلمين في وسطها تحطم أغلال العادات القديمة والتقاليد البالية ولكنها فرط عنايتها بنفسها لم تعد تعنى بالاحوال العامة للامة فهل لشبابنا المتعلم أن يدرك أن لا علم مع الانانية . وان الامة إنما علمت رجالها لا لخدمة أنفسهم فحسب . بل لخدمة مجموع الامة مثلاً في تلك الطبقات الجاهلة المسكينة الخليفة بكل حب وتمجيد وتضحية ؟

النفسية الانجليزية

كانت أوروبا الى زمن قريب تؤمن بتوفق الانجليز السكسونيين وكان نمو الصناعة وازدهارها في انجلترا في القرن التاسع عشر هو الباعث الأكبر على هذا الايمان .

ويذكر المصريون أن الكاتب الفرنسي أدمون ديمولان وضع كتاباً سماه (سر تقدم الانجليز) ونقله الى العربية المغفور له فتحي زغلول . وقد أحدث هذا الكتاب عند ظهوره في فرنسا ضجة كبيرة لفرط ما أشاد مؤلفه بالاخلاق الانجليزية القائمة على النشاط والكفاح والجرأة والمخاطرة والاعتماد على النفس وضبط الأعصاب وشيوع النزعة الفردية الاستقلالية في الشعب الانجليزي .

تلك كانت نظرة الفرنسيين خاصة والأوربيين عامة الى الانجليز ولكن هذه النظرة تبدلت عقب الحرب الكبرى ولا سيما بعد أن اتسع نطاق الحركات الوطنية في الهند وارلندا ومصر وعصفت الأزمة بحياة انجلترا الاقتصادية وحزتها من أصولها فككدست بضائعها وتفشيت العطلة فيها وهبطت عملتها المشهورة بثباتها وتوطدها .

ولقد ذهب بعض الكتاب الفرنسيين والألمان إلى أن الامبراطورية البريطانية صائرة الى التفكك لا محالة . فوضع الصحفي الفرنسي (ريمون ريكولي) كتابه عن « اضمحلال انجلترا » وبحث الأديب الألماني « لدريج ران » نفس

هذا الموضوع في سلسلة أبحاث نشرتها « مجلة ألمانيا » ثم جاء العلامة الفرنسي « أندريه سيجفريد » الشهير بدراساته الاجتماعية والحلقية عن الأمتين الأمريكية والانجليزية وجعل يشرح ويحلل أعراض النفسية البريطانية التي انتهت بالشعب الانجليزي إلى ما نشهده فيه اليوم من عوامل الضعف والانحلال . وأهم ما نستخلصه من تلك الدراسات ان الشعب الانجليزي كسول بالطبع متبلد بالفطرة محافظ ورجعي محب للكسل والرفاهية إلى حد الجمود والأناية بعكس الشعب الأمريكي مثلاً

فالفرد الانجليزي يحلم بحياة هادئة موفورة الرزق . حياة منظمة آلية متشابهة موزعة بين العمل اليومي المحدد الخفيف وبين الألعاب الرياضية وجلسات السمر الممتعة .

وهو في ذلك ينزع الى التشبه بالطبقة الاستقرائية التي تحكمه وبطريقتها الوراثة التقليدية في الحياة

ويمكننا أن نلخص مثله الأعلى في خمسة أشياء .

الحرص على المظهر الاجتماعي . وازدراء الثقافة والفكر . واحترام المركز واللقب والنفور من العمل الشاق . والولع بالألعاب الرياضية إلى حد الجنون . وكل هذه ولاشك أعراض ارستقراطية صميمة

وللاقليم تأثير كبير في تكوين عقلية الفرد الانجليزي . فهو يعيش في جو أوقيانوسى مشغل بالأعاصير عليه أبدا رياح الغرب . وترسل فيه ضرباً من الرطوبة الشديدة تخترق الجسم وتفرى العظام .

وهذا ما يفسر لناحب الانجليزي للشمس وتعلقه بالرياضة وعدم تبرمه بحياة المستعمرات . بل قد يفسر لنا أيضاً ميله إلى الحياة البيتية الدافئة وحب العزلة واعتياده التأمل الطويل واقتران النزعة العملية في نفسه بالنزعة الشعرية

فهو عملي لأنه مضطر لمقاومة جو بلاده ليعيش وهو شعري لرغبته في
الفرار من هذا الجو والانطواء على ذاته في محيط هادئ جميل صاف
والانجليزى أشد الأوربيين كلفا بالأسفار . يسافر بدافع التجارة
ويسافر لأن السفر نوع من الرياضة . ويسافر لأنه خلق بحاراً .
ولكنه مع ذلك لا يعرف العالم . ولا يفكر في هذا الامر لحظة . ولو
أنك صادفته في مجاهل أفريقيا وحققت النظر فيه . لوجدته نفس رجل
الجزيرة الذى لم يخرج من بيته أبداً والذى عاش يألف العزلة ويتجنب
الاختلاط بالناس ويخشى الرطوبة والصقيع
ويقول فى ذلك اندريه سيجفريد :

« إن جهل الانجليز بالشعوب الاخرى لا يكاد يتصوره العقل . بل إن
جهلهم بعقليات الامم التى استعمروها لا يمكن أن يتخيله الفرنسى أو
الاطالى . لقد عاشوا فى الهند على حدة . وعاشوا فى مصر على حدة . وشدما
حارت عقولهم فى تحليل أسباب النهضة الهندية أو المصرية الاخيرة كأنما
كانوا بأجسامهم فى الهند ومصر وبعقولهم وعاداتهم واخلاقهم فى لندن .
ويلوح لى أنه لو حكم القدر على الانجليز بالبقاء فى جزيرتهم فلا بد أن
يعتزلوا العالم ويمعنوا فى عبادة تقاليدهم ولا يحفلوا على الاطلاق بفهم عقلية
أى شعب من الشعوب »

فالانجليزى المقصى فى جزيرته يحيا حياة دولية بتأثير علاقاته
التجارية المتسعة النطاق ومصالحه المركزة فى مختلف انحاء العالم .
ولكنه برغم هذا مايزال وطنيا متعصباً ضيق الذهن محدود العاطفة الانسانية
لا يدرك كيف يستعمر ولا يميل الى فهم الآخرين ولا يفكر إلا فى ان يشق
الطريق لتجارته . وبينما الفرنسيون مثلاً يندمجون فى الشعوب التى استعمروها
ويدمجونها فيهم ترى الانجليز يعيشون على هامش مستعمراتهم محتفظين

بعزلتهم الممثلة في عاداتهم وتقاليدهم التي يؤلف مجموعها شبه حرم قدسى لا يمكن ان ينفذ اليه أحد . ولكي يتق الانجليز أخطار هذه النزعة ابتكروا سياسة التهويش وذر الرماد وخلقوا في عقول الناس قوة خرافية سموها (بريطانيا العظمى) ولكن هذه القوة أخذت تضعف بعد الحرب الكبرى وبدأ الشرقيون يفهمون انها محض وهم لا يستند إلى شيء كبير من الحقائق النفسية . ولشدة ما ألف الانجليز مقاومة الطبيعة في بلادهم ولفرط حبهم العزلة تولد في نفوسهم ضرب من التوحش والقسوة يبدو جليا في معاملتهم سكان المستعمرات وأبلغ دليل على ذلك تلك التصرفات الفظيعة التي كان يتبعها الكولونيل وتنجهام في معاملته المساجين المصريين معاملة تتم عن تمسك داء الساذم من نفسه أى الشغف بتعذيب الغير والتذاذ هذا التعذيب ومن الظواهر التي تفقد الانجليزى احترام الشرقيين نفس تركيب عقله فهو بطيء الفهم بليد الفكر والاحساس عنيد في جهل وشراسة واعتداد . لا يؤمن بالحقائق إلا بعد وقوعها . ولا يواجه الصعاب إلا في حيرة وتردد ولا يحسب حساب الأشياء قبل تجمعها واستفحالها على نقيض المشهور عنه تلك بعض أعراض النفسية الانجليزية كما ذكرها الكتاب الذين أشرنا اليهم وقد قال الاديب الالماني (لدويج ران) ان الشرقيين بدأوا يشعرون بما في هذه الأعراض مجتمعة من ثغرات هائلة يمكن أن يصوبوا نحوها جهودهم للتحرر من سيطرة الدولة التي تحول بينهم وبين الحرية والحياة !

الفونسودى مادرياجا من خيرة كتاب اسبانيا الاحرار الذين قاموا بترويج الدعوة في أوربا ضد الجنرال بريمودى ريفيرا وفي سبيل تأييد نظام الحكم الجديد في اسبانيا

وللرجل مؤلفات عديدة تشهد باطلاع واسع وفكر ثاقب وألمام تام

بطباع مختلف الشعوب الأوروبية واخلاقها ومنها كتابه المشهور « الانجليز والفرنسيون والاسبان »

وقد أعجب مادرياجا بكتابات الأديب الاسباني جوليو ارسفال - الذى توفى أخيرا فى عنفوان شبابه - لتشابه النزعات فى نفسيهما واهتمامهما بدراسة عادات الشعوب وتقاليدها . فآخذ مادرياجا على عاتقه نشر مؤلفات صديقه الشاب والتعليق عليها ولفت انظار الاوربيين والاسبان اليها .

ومما نشره له مذكراته عن انجلترا التى تلقى ضوءا ساطعا على اخلاق الشعب الانجليزى وتعيد إلى الازهان روعة تلك البحوث المستفيضة العميقة التى كتبها فى هذا الموضوع الناقد الأمريكى الأشهر (امرسون) والفونسودى مادرياجا نفسه

وقد طالعنا هذه المذكرات واسترعانا منها بعد النظر ودقة الفكر وقوة الملاحظة فأثرنا ان ننقل الى الجمهور المصرى ماعلق بذهننا منها ونعلق عليه رغبة فى الوقوف على عقلية أمة ارسدنا جهودنا لمكافحتها والتحرر من نيرها وليس ثمة شك فى أن من أقدم واجباتنا دراسة اخلاق الشعب الذى اغتصب بلادنا وفهم أطواره ومنازعه كيما نحسن مخاطبته بلغته وندرك أوجه الضعف والقوة من نظامه الاجتماعى والخلقى

وأعجب ما أعجب له أن تكون فى اللغات الأوروبية سلسلة كتب قيمة تبحث فى العقلية الانجليزية ثم لا يفكر أحد فى ترجمتها والاهتداء بها فى النضال السياسى القائم بيننا وبين الانجليز

واليك صفوة ملاحظات الأديب الاسبانى :

تقوم الامة الانجليزية على نظام الطبقات فهناك الارستقراطية والطبقة الوسطى والشعب . كل من هذه الطبقات يحتفظ بتقاليده ويخضع للفكرة

السائدة بأن قيمة الطبقة ليست بعدد المنتسبين اليها بل بما لبعض أفرادها من سلطان الوراثة والمركز والمال .

والانجليزى رجلا كان أم امرأة يستطيع فى نظرة عارضة بسيطة أن يحدد مركز الآخر فى سلم المجتمع . وذلك عن طريق الحواس المتنبهة أبدا فى أفراد هذا الشعب . فالعين تلاحظ لفورها الهندام . والأذن تميز اللهجة . والشم يحس النظافة أو القذارة ، ويفرق ، لاسيما عند النساء ، بين شتى أنواع البودرة والعطور .

وهذا التفيز الدائم فى الحواس والاعتماد عليها فى ملاحظة الأشخاص يدفع بالفرد الانجليزى إلى اصدار حكمه على الآخرين بسرعة وتهور مستندا فى معظم الأحيان إلى الظواهر فقط .

وللانجليزى نظرة حادة ولكنها غامضة لا تحدد فىك مواجهة أدبا من صاحبها واحتراما . ولكنها تنبعث من عنين زرقاوين تأهتين فيخيل اليك أنها ساجحة فى عالم آخر بينما هى تتأملك خفية وتلاحظك وتحاسبك ثم تستصدر الحكم القاطع عليك .

وللانجليزيات حاسة شم قوية يتوسل بعضهن بها إلى فهم البعض الآخر . وان مجرد احساسهن بنوع العطر الذى تنعطر به امرأة يكفى لعددها شريفة أو غير شريفة خليعة اورصينة . بل ان معاطس الانجليزيات — وقد يسخر القارئ من هذه الملاحظة — دقيقة الشم إلى حد أنها تشعر بالفوارق الاجتماعية وتحدد مراكز الافراد وتدرک ان هذه المرأة مثلا ممرضة فى مستشفى وتلك خادمة فى بيت أو مربية أولاد أو سيدة نبيلة وكثيرا ما يتوقف على هذا الاحساس اسلوب المعاملة الذى تتخذه امرأة انجليزية حيال أخرى

ومرجع هذه الظاهرة ولع الانجليز بالانظافة وخاصة نظافة الأثواب الداخلية التي تعد شدة اهتمامهم بها فضيلة لا تبزهن فيها غير نساء السويدو والنرويج وفي الجنس الانجليزى غريزة تؤثر فى الأمة ابعده تأثير وتنحدر من نظام الطبقات نفسه وتدفع بأفراد هذه الطبقة إلى قبول تفوق الطبقة الأخرى عليها كى تتعالى هى بدورها على الطبقة التى تليها . وقد يتسامح الانجليزى فى كل شئ . ولكنه لا يتسامح فى مسألة الألقاب . ومهما كنت حرا فيجب عليك إن ذكرت الشخص الا تغفل ذكر لقبه أو تخطئ فيه فتقول (سير ارثر سميث) مثلا ولا تقول الفيكونت سميث أو المستر سميث . وهذه الخلطة تطبع الحياة الانجليزية كلها بطابع ارستقراطي صميم .

وما دامت الحياة الانجليزية حياة استقرارية فهى تتكيف وفق الأمثلة التى تهبط اليها من الطبقة العليا

والملاحظ أن كل طبقة تجتهد فى تقليد حركات الطبقة العليا وسكانها ونوع معيشتها ، فالمستر توم براون الذى يقطن فى سوربتون فيلا صغيرة مؤلفة من خمس غرف ، يخلع عليها اسم القصر المنيف الذى يسكنه دوقات ديفونشير ولا تراه ينزع إلى محاكاة الارستقراطي فى اثاث بيته فحسب بل فى ملبسه وفى عقليته أيضا

أما النبلاء فكثير منهم يمتازون بالنبوغ والثقافة وفيهم طائفة كبيرة تتذوق الفنون والعلوم والآداب وتقبل عليها وتشجعها وتغذيها ولكن الثقافة العقلية ليست مع ذلك - بوجه عام - من تقاليدهم بل هى من تقاليد الرجال الذين انقطعوا للدراسة والعلم .

والواقع أن تقاليد النبلاء تدفع بهم إلى التعاق بالسياسة العملية والحياة فى الريف والاهتمام بالألعاب الرياضية والانصراف عن الثقافة والتفكير انصراف ترفع واستخفاف ارستقراطي .

ويجاريهم في هذه الظاهرة الانجليزى العادى فهو يتوق الى العيش مثلهم
فى الهواء الطلق والتخلص من نير الثقافة واعبائها ، والاقبال على الألعاب
الرياضية .

وبما أنه لا يعنى بتثقيف عقله ولا يحسن التفكير فهو يبيح الافكار جميعاً
ويتسامح فيها جميعاً ويطلق العنان لها جميعاً ولا يعرف الكبرياء الذهنية بل
ويفخر فى أغلب الأحيان بجعله غير حافل بهذا النقص مادام فى وسعه ان
يسده بمعرفة الحياة العملية والأوضاع الاجتماعية الشائعة التى تليق
« بالجنتمان » الانجليزى .

ومن مميزات الجنتمان شىء من التردد فى حديثه وضرب من العزوف
عن اطلاق حركة ذهنه إلى حدها الأقصى ، وبعض اللثمة فى الكلام ،
وتجنب الافاضة والشرح ، والاكتفاء بالملاحظات المتقطعة ، ومحاولة الايحاء
بالفكرة بدل التعبير عنها ، والتورع عن المظاهر العقلية الحماسية ، ومراقبة
الحركات والسكنات مراقبة دقيقة ، وضبط الأعصاب على الدوام ، والاحتفاظ
بمظهر متحفظ بارد معتكف قد يدل على فرط الأدب ولكنه يدل فى الوقت
نفسه على فقر ذهنى بالغ ومهارة كبيرة فى إخفاء هذا الفقر . . .

ولذلك نرى المجتمعات الانجليزية هادئة لا يحتدم فيها ذلك الجدل الفكرى
المتصف به مجتمعات الشعوب اللاتينية .

و « الجنتمان » يود أن يجوز طريقة غير ملحوظ من أحد وهو فى الغالب
لا يستطيع أن يكون له رأياً من الآراء يحاور فيه ويجادل إذ هو مشغول
البال بكلايه ومنزله ورحلاته . وحتى لو كان من أبناء الطبقة الوسطى ولم يكن
له من المهام المتعددة ما يصرفه عن التفكير فهو لا يرضى بأن يرهق ذهنه
بأفكار وآراء وثقافة علمته الطبقة العالية التى يحاكيها أن لا فائدة منها ألبتة . .

أما النساء الانجليزيات فأشدهن الرجال كلفا بتقليد تلك الطبقة . وفي كل امرأة انجليزية تجد دوقه مشوّهة .

وفي عقل كل انجليزية تجد آراء الارستقراطية ومبادئها قد انحدرت وتدهورت وتجمدت ورسبت .

فالانجليزية تفكر وتعمل لا بحسب ماتمليه عليها طبيعتها بل وفق أحكام المجتمع وهكذا تكبت ميولها الحقيقية وتقصيها في اطواء نفسها ، وتحجبها عن الناس ما استطاعت وتبدو للناظر في شكل آلى صناعي زائف تسهر عليه وتتعبده جهدها ولا تنفك تمن في مراقبته والحفاظه عليه .

ويجب أن نعترف بأن الوله بتقليد الطبقة العالية يهذب في بعض الاحايين من ذوق الجمهور ولكن هذا التهذيب يؤثر في الأوضاع الاجتماعية فقط ولا يساعد على نمو الخصاص العقلية وصقلها

وهذا طبيعي في أمة تُخضع الفرد للمجتمع . وتخضع التفكير للعمل . وما القدرة على التفكير في نظر الانجليز الا امتياز خاص يعود نفعه على صاحبه ، وما الثقافة الذهنية إلا نوع من التجميل الشخصي لا تطبقه على الواقع إلا نادرا أما معرفة الفرد بأوضاع المجتمع وأما التربية الاجتماعية ففوة نجرها على الدوام وننتفع بها نحن والآخريين .

ومن البديهي ان الانجليز يؤثرون الجنتلمان المهذب العملي المحدود العقل والادراك على المتعلم المثقف الحر ويميلون إلى الرقي الاجتماعي أكثر مما يميلون إلى الرقي الفكري . ولهذا تراهم لا يحلفون كثيرا بتعليم سكان مستعمراتهم وتثقيفهم ولهذا يشعرون فيما بينهم وبين أنفسهم بالرابطة الاجتماعية أبلغ شعور . وهذه الرابطة الاجتماعية تتمثل في تشبههم بعاداتهم الخاصة التي لا يتزلون عنها في أي بلد يهبطونه .

والغريب فيهم أنهم في بلادهم يخشون انتقادات من هم أرقى طبقة منهم فلا يسرف بعضهم في التعالي على بعض ولكنهم متى أطلقوا على العالم حملوا معهم تلك الغطرسة المعروفة وذلك الكبر العنصرى الممقوت المستمد من تلك الرابطة الاجتماعية الوثيقة التي أشرنا إليها .

ومما يدل على مبلغ احترامهم للتقاليد وعنايتهم بالاستقلال العملي دون الاستقلال الفكرى وخوفهم من التفكير الجرىء الصريح الذى يحمل صاحبه المسؤوليات ان الانجليز لا يجزم بصحة شيء أبدا سواء أكان فكرة أم عاطفة فالصحفى الانجليزى مثلاً يقول : « من الجائز ان هذا النبأ ... الخ . . » فى حين ان الصحفى الفرنسى يكتب دون خشية : « ان هذا النبأ ... الخ . . » والناقد الانجليزى يقول : « يظهر ان المؤلف لم بتفاصيل موضوعه » فى حين ان الناقد الاسبانى لا يتردد فى القول : « هذا المؤلف لم بتفاصيل موضوعه » وهكذا .

وقد يبدو هذا التحفظ من الانجليز كدليل تواضع وذكاء وفطنة ولكنه فى الحقيقة شعور بالعجز عن تحمل مسؤوليات الفكر الحر الذى قد يخرج على ما اصطلحت عليه الجماعة من نظم وآراء

فالانجليزى عبد الجماعة . وهو متكبر مزهو نفور ولكن على حساب الجماعة وعلى انقراض نفسه كإنسان مستقل يحس ويفكر ويريد

هذه بعض ملاحظات الكاتب الاسبانى (جوليوارسفال) ومنها يتبين لنا أن الانجليزى يفكر عادة كوطى لا كإنسان . بمعنى أن العواطف الرحيمة الكبيرة . والمبادئ المثالية العالية ، والنزعات الإنسانية المشتركة لا تهمه بقدر ماتهم مصلحة بلاده وشخصه .

والواقع انه لا يؤمن بهذه النزعات ولا يحب أن يتورط فى الدفاع عنها

والتضحية في سبيلها إذ المبادئ الانسانية المشتركة تتطلب زمنا طويلا لتحقيقها وتبدو لأول وهلة كخيالات واحلام والانجليزى يميل بطبيعته الى الفكر العملى ذى المنفعة المباشرة التى يحس اثارها الفعالة فى محيطه الضيق المحدود ومن العبث أن نتظر من الشعب الانجليزى القيام بثورة من طراز الثورة الفرنسية أو الروسية ذات مبادئ مثالية تجاوزت افاق الحياة الوطنية وتخطت الانسانية جمعاء.

وقد يكون الانجليزى حرا . وقد يكون اشتراكيا ولكنه يظل انجليزيا قبل كل شيء ونحن نعلم ما انتهت اليه التعاليم الاشتراكية على يد المستر ماكدونالد وكيف خرج هذا الرجل الشعبى على طبقته واندمج فى الطبقة الارستقراطية التى يمثلها المحافظون وتأقلم بها وأنكر مبادئها وأحال الاشتراكية الى نوع من الحكم الاوليجاركى يعمل لمصلحة الامبراطورية ولرفادة الطبقات النبيلة الممولة

هذا الشعور العميق بالوطنية والعنصرية ، وذلك الاعتقاد الوراثى بتفوق طبقة الخاصة ، وذلك الاحساس بسلطان الجماعة . يولد فى نفوس الانجليز من جملة قويا من الاعتداد والانانية والقسوة

ولو ذهبنا فى التحليل الى أبعد من هذا لأدركنا أن القسوة انما تنشأ عن عدم الاكتراث بالغير وعدم الاكتراث وليد الكبر والكبر من مستلزمات الارستقراطية اذن فالقسوة التى نلاحظها فى الفرد الانجليزى هى مظهر من مظاهر الروح الارستقراطية التى يحاول جهده محاكاتها

وقد أشار « أندريه سيجفريد » إلى النتائج الويلة التى ترتبت على ولع الشعب الانجليزى بتقليد نبلائه

فالنبلاء — كما أسلفنا — ينصرفون الى الالعب الرياضية ويكرهون الثقافة ، ويحبون الاسفار ، وينفقون ويبدرون والشعب الذى ألف الرخاء

يقتدى بهم ويود أن يخلد إلى الراحة مثلهم . وينفق ويبذر ويستمتع أسوة بهم ، وقد ضاعفت الحضارة الحديثة أسباب اللذة التي يمتلكها النبلاء فاشتدت رغبة الشعب في الحصول على أسباب تلك اللذة أيضا فأفرط في الانفاق ، وأبغض العمل ، وطلب المتع ، وتراخى ودب فيه الكسل ، وفقد ملـكات الاقتصاد ، فلها عصفت به الأزمة الأخيرة اختبل بها وحر واضطرب وتزعزع ، إذ هو لم يكن يتصور لحظة ان الامبراطورية الغنية قد تصبح يوماً فريسة الازمات وإن من واجبه أن يقدر عواقب تصرفاته ويحسب حساب الغد . . .

وما أحب أن أوجه إليه انظار القارىء مرة ثانية ظاهرة التبدل التي تبدو على سيماء الانجليز
فالانجليزى بوجه عام ليس بالرجل المتقدم الذكاء السريع الفهم الحاضر البديهة ، بل هو على النقيض محدود الذهن عادى المدارك كما أسلفنا

وقد يستعيز بماتة الخلق عن الذكاء ولكن هذا الخلق المتين نفسه لا يكاد يستثمره الانجليزى فى العمل ولا يكاد يشعر حوله بنتائج المحسوسة الطيبة حتى يطمئن اليها ويكف لفوره عن مواصلة العمل ويأخذ فى تنظيم حياته بحيث يتمكن من تذوق تلك النتائج تذوق ارسقراطى أبى مترفع أنوف وعليه فنشاطه يضعف بسرعة . وينقلب للحال من نشاط فى العمل إلى نشاط فى التمتع . وهذا سر ضعفه . وهذا ما يسترىح اليه فى حياة التوظيف فى المستعمرات حيث تضمن له حكومته المركز ويضمن لنفسه الراحة والمتعة والرخاء وصفوة القول انه لا يستطيع أن يعمل بنفس الجهد وباستمرار . ولا

ان يضحى باستمرار ، ولا أن ينزل عن متعه ويقتصد باستمرار .
والويل ثم الويل للأمة الانجليزية إذا ما استفحلت ازماتها المالية وأحس
الشعب بوطأة البؤس الحقيقي
وفي رأي ان الانجليزى ارستقراطى وتاجر بالفطرة . وهو محب للتمتع
لانه ارستقراطى وتاجر . وأجفع كارثة عنده مايحل بتجارته ويصيبه فى رفاهيته
وملاذه ومتعه . وهذا ما دركه غاندى حق الادراك وما استوحاه خطته
السياسية الايجابية فى مقاومة الشعب البريطانى . وهذا ما يجب أن نفهمه فى مصر
كى نتجه نحن أيضاً بأساليبنا السياسية وجهة عملية نافعة منتجه

نهضة الصين وأدبها

كان الشعب الصيني حتى مقدم المصلح الكبير صان يات صن مضرب المثل في فتور الهمة ، وخور العزيمة ، وتبلد الذهن ، والاخلاد إلى الراحة ، والاستمتاع بما في التواكل من لذة الحلم والتأمل والاستسلام والعجز المطلق عن التفكير والارادة والعمل .

و كنت لا تكاد تفتح كتاباً أوريا يتناول مؤلفه شؤون الصين حتى تلمح بين سطوره أثر الاستخفاف والتهكم والازدراء بكل ما هو صيني وأثر الرغبة في التسابق إلى غزو هذا الشعب والتسلط عليه والامعان في استغلاله والمضى في فتح بلاده أسواقاً عظيمة للتجارة الأجنبية وابقائه مدى الدهر خاضعاً لحكم الامتيازات فريسة لمختلف الدول ونهباً مقسماً بين المستعمرين .

وكان المفكر الأوربي أو الأمريكي يتخذ من الشعب الصيني مقياساً عقلية سائر شعوب الشرق . بل كان يتخذه رمزاً للشرق نفسه ، يعجب بحياته الناعمة الوادعة ، وخيالاته الرقيقة الفاتنة ، وأحلامه الدينية الساحرة وما طبع عليه من صبر وجلد وقناعة وخمول ثم يفطر في اعجابه افراطاً خبيثاً سرعان ما يستحيل في نفسه العملية إلى شعور بالسيادة والتفوق وضرورة بسط النفوذ الغربي على هذا الشرق الهاجع هجعة شعرية ابدية تغرى بالوثبة والاقتناص . وهكذا تحالفت الدول الكبيرة على استنزاف دم الصين . وتكالبت

عليها . وامعنت في اذلالها . وماتزال تلك الدول في بعض مستعمراتها الصينية تبطش بجماهير الشعب المطالبة بالاصلاح وتخدم في صدورهما أولى صرخات الحرية وتقمع حركاتها الثقافية بمختلف وسائل الشدة وتعمل على ان تجعل منها القطيع الأعمى المسمم بالأفيون . المعد للالتهام لأنه ضعيف ولأنه اسيوى ولأنه شرقي .

وأن من يقرأ مؤلفات (كلود فاريير) عن الهند الصينية وما يقع فيها . ومن يطالع التقارير التي نشرتها جريدة (موند) عن اعمال القمع الأخيرة التي قام بها الحاكم باسكيه في الهند الصينية أيضاً يقف تمام الوقوف على النظرة التي تنظرها السياسة الاوربية والاستعمار الاوربي إلى كل ما هو صيني أو ما يمكن أن يمت إلى الجنس الصيني بسبب .

وعلى هذا الاعتبار كانت تجرى الدول في معاملة الصين . كانت تعتدها احط الامم الشرقية نظاما ، واعرقتها في التواكل إيمانا ، وأقدرها على احتمال الضيم ، واحوجها إلى الوصاية ، بل إلى العبودية الدائمة ولكن الشعب الصيني الذي ابتدع البوصلة والطباعة والبارود والذي هيجت في تضاعيف روحه ملكات الابتكار والخلق الأجيال الطوال . افاق من غفلته يوما وإذا بالاستعمار يحلب اليه احداث وسائل الحضارة فالصناعات الجديدة تغمر اسواقه ، والمباني العصرية الغربية تنطاد وتتعالى في شوارعه ، والجرائد والكتب والمجلات الاجنبية تحتل موادها الطريفة عقول شبانه تلقى فيها بذور الشك من نحو الثقافة الاسيوية الصينية القديمة وصلاحياتها حياة الحاضر والمستقبل .

جاءه الاستعمار بنقمة في طيها نعمة . وباستبداد فيه عنصر القوة . وبحضارة تتطلب إعادة النظر في القيم الاخلاقية والاجتماعية والسياسية التي اعتنقها الصينيون وتوارثوها وعاشوا بها وأقصتهم عن بقية العالم

ولم يفتن المستعمرون إلى أنهم باستعمارهم إنما يحملون إلى هذا الشرق
مكرهين أسباب الحضارة الحديثة الدالة على تفوقهم . من نظم جديدة ، وتعاليم
ديموقراطية ، ومبادئ رائعة خلافة في الحرية والعدالة والمساواة ، وعلوم
واختراعات وصناعات وأسلحة يمكن أن تشتري بالمال ويعمم استعمالها في
تلك الأقطار المترامية الشاسعة . . .

هذا ما أحسه الشعب الصيني .

أحسن ان هذه الحضارة السائدة لا بد له من اصطناعها كي يسود بيوره
يوما ويتحرر من نير الأجنى .

وما لاحت في الجو الاجتماعي بواد هذا الاحساس حتى اضطرب
المفكرون الأوروبيون وراح البعض منهم يتساءل : ترى ما الذي سوف
يحل بنا لو أن هذا الشعب الذي لا يقل عدد سكانه عن عدد سكان أوروبا
اتحد والتأم وتفاهم واعتنق حضارتنا وعمل على محاربتنا بنفس سلاحنا .

وكان أشد الصينيين إحساسا بهذا الانقلاب العاطفي المتمشي في صدور
مواطنيه (صان يات صن) المصلح الكبير ومؤسس الجمهورية الصينية
العبقري . لم يتردد هذا الرجل في اختيار الطريق التي توصله الى تحقيق أمنيته
رحل إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وأمريكا وعكف على دراسة
النظم المتبعة هناك وجعل يقارن بينها ويفاضل ويتخير أرقاها وأصلحها
وأنسبها لأمته

ولما ان صحت عزيمته على وجوب تحرير بلاده من الحكم المطلق ومن
سلطان المستعمرين جاهر بأرائه في رسائل شاعت بين الشعب وحفظها
الرجال والنساء عن ظهر قلب ، ولقنت للعبي في المدرسة وللفتاة في الحدر
وهذا بعض ما اشتملت عليه من عبارات خالدة :

« نحن أشبه بكثرة من الرمل . ولكي نجعل من هذا الرمل خرسانا يجب ان نصب فيه اسمنت الوطنية ! »

« ان الديموقراطية الصحيحة تضع الحكم في أيدي الشعب فيشعر كل فرد بالظلم النازل بأخيه ويحاول أن يهدم هذا الظلم لئلا يذهب هو أيضاً ضحيته ! »
« يجب على كل مواطن ان ينزل لأتمته عن جزء من حريته . ومن هذه الاجزاء مجتمعة تتألف حرية الأمة وحرية الفرد معا »

« على كل مواطن أن يعد نفسه مسئولاً عن حسن تطبيق القانون إذ كل فرد في الأمة العظيمة هو في الحقيقة مواطن ومشروع ! »

إن الحاكم المطلق يملكه الشعب وينصرف بقلبه عنه ويرغمه على العيش في عزلة . ومتى أحس المستبد بعزلته ثارت كبرياؤه وتاقت نفسه الى اجتذاب القلوب بالرشوة تارة وبالقوة أخرى . ولكن الرشوة والقوة هما السماد الطبيعي لأرض الحرية ! »

هذه النهضة الكامنة التي فجر ينابيعها (صان يات صن) انحدرت منه إلى مجموع الشعب وطبعت مختلف المظاهر الحيوية بطابعها . ولم يتأثر بها العمال والصناع والطلبة والموظفون فحسب ؛ بل سرت في شتى فروع الحياة الفكرية وأخذت تلقح الأدب الصيني بلقاح جديد .

وكان الأدب الصيني لا يزال حتى هذا العهد متأثراً بالقصص الخرافية الدينية والحكايات الساذجة الخيالية الدائرة حول موضوعات العشق والسحر . ولكنه برغم طابعه الفطري كان غنياً في محيطه المحدود ممثلاً في قصص عظيمة نقل البعض منها إلى لغات أوربا كقصص الممالك الثلاث وقصة الرحلة إلى الغرب وقصة الحلم في الدار الحمراء وقصة الآلهة التي ترجمها إلى الألمانية الفيلسوف شلجل . غير أن الداء الذي ظل ينخر الفكر الصيني ويحول بينه وبين الابتكار

والتجدد هو داء المحاكاة والرغبة المتأصلة في تقليد الاقدمين والاعتقاد المتوارث بأن أدب السلف هو خير أدب وثقافتهم أكمل الثقافات ودينهم أروع دين ونظرتهم إلى الحياة أصدق النظرات وأبعدها مرمى وصدى .

ولم يكن في وسع أدباء الصين - لخرج موقفهم وترددهم بين حضارتين متباينتين - أن يسموا بأعمالهم الفكرية من حيث البساطة والسذاجة والدقة إلى أعمال الاسلاف فاكثفوا بمحاكاة اطارها اللفظي وزخرفها السطحي وموسيقاها اللفظية الداوية . فكان من جراء ذلك أن اصطبغ الأدب الصينى حتى أواخر القرن التاسع عشر بصبغة لفظية محضنة لا ابتداع فيها ولا روح ولا حياة .

انصرف القوم إلى عبادة اللفظ وإيثار الكلمة على المعنى والعرض على الجوهر والخيال الشعري المصحوب بالمبالغات الشرقية العاطفية على الامانة والصدق والحقيقة والاتزان .

ولم تقف عدوى هذا المرض عند حدود الأدب والفن بل جاوزتها إلى الحياة العامة فكان الجمهور يعجب بمظاهر الاشياء ولا يكلف نفسه عناء البحث في بواطنها . تستفزه جلبة الالفاظ فيقدسها ، ويستخفه الطرب الشائع فيها فيهلل لشخصية صاحبها . حتى أصبح كل لغوى عالما . وكل نظام شاعرا . وكل مهوش مضلل يحذق فن الكلام مفكرا ومصلحا وعبقريا .

وهكذا حبس الكتاب الأدب والفكر في ساحة ضيقة خانقة ، وباعدوا بينه وبين مشاكل العالم المتجددة المعقدة ، وبات هم الأديب ان يستدق ويتظرف ويتخنث كى يبدع أرشق وأجزل وأحلى عبارة بدل ان يتأمل ويفكر ويحس مسجلا في عمله اصداء الحياة الكاملة متجاوبة في عقله ووجدانه . وكانت النتيجة ان تجرد الأدب من الثقافة ولم يحفل بدراسة الاجتماع

ولا الفلسفة ولا الدين تمشياً مع الانماط الحديثة المتبعة في الغرب فانحطت بذلك مدارك الكتاب والجمهور معا ، وغشيت العقل الصينى سحابة جهل كشيقة ضاعفت من غروره وزادت هوة الخلاف اتساعا بينه وبين ثقافة الغرب وفى هذا يقول المسيو (لينج سومنج) أستاذ الادب الصينى :

« كانت بلادنا غارقة فى بحر من الظلمات . وكان كل كاتب من كتابنا أعمى عما يحيط به من الوان الحياة . كنا لا نؤمن بأن رسالة الادب الصحيح هى اكتناه سر الحقيقة المطلقة الكامنة وراء الاشكال والاضاع . كنا نجعل ان الادب إما اوجدته الحياة لفائدة الحياة وتوسيع افقها وتجميلها ومضاعفة إحساسنا البشرى بحبها والايمان بها وبقدرة الانسان على ابلاغها حد الكمال ! »

وبدا على النفسية الصينية إذ ذاك عارض جديد . هو عارض الحيرة والقلق والاضطراب وتوزع الآراء وتشتهت وانتصار البعض للفكر التقليدى والبعض الآخر للفكر الاوربى الحديث . فكانت معارك جدلية هائلة وسلسلة مقالات ملؤها المثالب والمطاعن تنشرها الصحف وتنتصر فيها لمذهب فريق أو تنقضه وتسفه آراء مدرسة أو ترفع اعضاءها إلى مصاف الرواد العظام .

وتداعت القيم الأدبية كلها وارتج الرأى العام من جراء هذا الصراع واختلطت عليه السبل ولم يعرف أى طريق يسلك ولا من أية ثقافة يجب ان يستمد فجعل يمعن فى الفوضى ويغرق فى الشحناء ويلتذ أفانين الجدل المنطقى العقيم . ولكن هذه الفوضى نفسها كانت دليل الاحساس بالحياة . كانت أول اندفاقات الحياة التى لبثت تتجمع الاعوام الطوال فى صدور الصينيين .

وقد سجل المؤرخ الفرنسى (هو فلاك) فى كتابه عن الصين هذه الفترة من تاريخها فى مثل هذه العبارات :

« كنت لا تسمع في كل مكان غير أصوات التذمر والشكوى . أصوات تترافع ثم تنخفض ثم تتعالى في جلبة وحشية مروعة . كان الشعب ينصت للطبقة المثقفة ولكن الطبقة المثقفة كانت عاجزة عن تحديد اغراضها وتوجيهها وجهة معينة واضحة .

كان المصلحون يشكون استبداد الحكومة ، والأدباء يشكون خنق الفكر وركود الأدب ، والأفراد يشكون الحيرة وعدم الاستقرار ، والأمة بأسرها تنزع الى التحرر والنهوض ولا من يأخذ بيدها ويهديها سواء السبيل وكانت الحركة الأدبية بوجه خاص تبحث في الحياة العامة عن الحافز الاجتماعي الذي يخلق نفسية الجماعات ويهزها من سباتها العميق ويعمل على تبديل القوانين والنظم ويرغم الأدباء على النظر الى الأدب نظرة وطنية وإنسانية جديدة تساعد الأمة في نهضتها السياسية والثقافية المبتغاة »

تلك كانت حالهم الى أن دوت في الجو صيحات (صنيات صن) وعندها استضاء الطريق بغتة أمام العقل الصيني وأدرك الصينيون أن زعيمهم ليس بالزعيم السياسي فقط بل المصلح الاجتماعي أيضا . وكأنهم كانوا في أشد الحاجة الى رجل يتقدم الصفوف ويقرر المبدأ ويرسم الخطة ويعتزم التنفيذ فانقادوا إليه وتبعوه !

تبعوا صان يات صن لأنه جاءهم بشيء جديد بل لأنه استطاع التعبير عما يعتلج في صدورهم من مطامح وآمال .

تبعوه لأنه كان قويا في الحق ، صارما في العمل ، جبارا في التنفيذ . تبعوه لاني جهاده السياسي فحسب ، بل في جهاده الاجتماعي الاصلاحى أيضا . وكما اتجه الزعيم ببصره نحو الغرب كذلك اتجه الشعب وعلى رأسه المفكرون والأدباء .

أحس الجميع أن لابد من جلب تلك الحضارة الاثورية اليهم وأن لابد من الاسراع في بحثها ودراستها وتحليل أجزائها وتطبيق الصالح منها على الأمة الصينية سواء فيما يتعلق بالنظم السياسية أو أساليب العلم وطرائق الشقيف .

وكانت حركة نقل وترجمة لامثيل لها . اخذ الكتاب يترجمون ويقتبسون ويخلصون انضج ما انتجته العقول الغربية من أدب وعلم وسياسة وفلسفة واجتماع ، ولكنهم كانوا اكثر ما يسددون جهودهم نحوه غرض واحد . هو البدء بتحرير البلاد سياسيا كي يكون الاحساس الديموقراطي في نفس الجماهير ويشعر الفرد الصينى بحريته وكرامته ومسئوليته وواجبه واتحد الأدباء فى المطالبة بالحرية ووجدوا فى صانعات صن وانصاره خير قادة واخلص زعماء فالتفوا حولهم وورجوا لمبادئهم وشاركوهم فى تضحياتهم واستهدفوا لخطر الموت معهم واتخذوا من القلم اداة للدعاية الوطنية ووسيلة فعالة من وسائل الخلاص .

وكان ان تضافرت قوى العامة والخاصة وتمازجت والتأمت فى ظل مثل واحد أعلى فما كاد يقبل عام ١٩١١ حتى انفجرت تلك القوى واندلع منها لهيب الثورة التى دكت صرح الاستبداد وقضت على نظام الحكم المطلق فى بلاد الصين .

وإذ ذاك شعر الادباء بالعزة القومية ابلى شعور واتمه فنشطت عقولهم وتفتقت قرائنهم واخضبت مخيلاتهم ولاح لهم فى الافق المخضب الدامى شعاع أدب قومى رائع جديد

اطلقتهم الحرية من اسارهم فأحسوا انهم كانوا بالامس دعاة للثقافة والوطنية فقط . وانهم سيصبحون بعد اليوم ادباء احراراً مستقلين خلاقين وسرت فيهم ارادة الخلق عاصفة عاتية تواد أن تحقق فى الادب ثورة

ثانية تسكمل الثورة الاولى وتؤيدها وتحمىها ونبقى الجذوة المقدسة حية متقدة
فى الصدور

وللفور شرعوا يجمعون كلمتهم ويوحدون صفوفهم ويؤلفون تلك
الجمعية الأدبية التى عرفت باسم (ثوار الأدب) والتى اختارت لزعامتها
شاعر الصين (هوشيه) استاذ الفلسفة الصينية بجامعة بكين الوطنية
والاستاذ (هوشيه) يعد اليوم أعظم شعراء الصين ورافع لواء نهضتها
الأدبية وممثل عبقريتها العنصرية والصوت القوى المعبر عن مختلف نزعات
شعراء وكتاب الشباب .

وإليك احدى مقطوعاته نسوقها للدلالة على المتجه الحديث للأدب
الصينى .

(الشاعر والحياة)

« لن انتحر فى الربيع ، ولن أحزن فى الخريف
لتنفتح الأزاهير أو لتسقط إذا شاءت .
بل لتلتهب الشمس أو تتقاص أو تغيب .

ماذا يهمنى ؟ !

انهم يمجدون السماء والبعض منهم يشدو بلونها الصافى ، ولكنى أود أن
أعطيها واستخدمها لمصلحتى وأشرف منها على العالم !
لماذا أندب سوء حظى وأظل راقداً أبكى كالعبيد ؟
ينبغى أن أحمل الراية وأدرب ساعدى على الصراع !
ينبغى أن أفرغ الاجيال مما أودع الظلم فى بطونها من عبودية ! ...
ينبغى أن تنفتح أبواب القرون أمام قدمى !
ينبغى الا اترك لسواى فرصة الظفر بالبطولة إذ الحياة قصيرة والموت
بالمرصاد ويجب أن أنهض بذكرى وأخلد برغم الموت والحياة !

فلنكتسح . فلنكتسح كل تلك القاذورات ولننتفوق على أنفسنا بأنفسنا .
كفى نخاق للصين أبا جديدا وحياة جديدة خالدة ! »

هذه هي الروح المستولية على الأديب الصيني اليوم . وهي كما ترى روح
قوة وابتداع وإرادة ومغامرة ، كان أول من أحس بخطورتها وافت إليها
إنظار الأوروبيين الشاعر وعضو الأكااديمية الفرنسية بول فاليري في مقال
له عن الصين أحدث ضجة عظيمة في الدوائر الثقافية ووردت فيه هذه
العبارة التي هي خير ما نختم به هذا المقال :

ان الشعب الصيني يريد أن يعيش وإرادته الجبارة يمتلئها اليوم أدباؤه
أبلغ تمثيل .

فعلينا أن نرقب هذه الحركة بدقة ونقيم لها أكبر وزن لأن الأمة التي
تعتزم خلق أدب جديد هي أمة تطمح الى تأسيس حضارة جديدة .
فلنتجه اذن بأبصارنا نحو الصين . ولنجتهد في الذود عن أنفسنا حيال
تلك القوى الهائلة الآخذة في التأجج هناك ، في مجاهل آسيا السحيقة التي
طالما اعتقدنا أنها أرض النوم والأحلام ! »

اليابان الحديثه

إن ابلغ العقائد الدينية تأثيراً في حياة اليابان هي العقيدة الشنتوية .
وأظهر ما في هذه العقيدة الايمان بأن عالم الموتى يتصرف تصرفاً عملياً مباشراً
في عالم الأحياء

ويطلق الشنتويون كلمة (كامي) — أى الاله او المتفوق أو الاعلى —
على الروح الانسانية التى تتوافرها بعد الموت صفات خارقة للطبيعة . فالموتى أو
(الكامي) هم المتفوقون اصحاب تلك الصفات والقوى الخارقة وهم بالطبع
ارقي منزلة من الأحياء ولكن الأحياء يؤثرون فيهم بما يحدثونه لهم من فرح
او ترح ، من غضب أو رضى .

ويعتقد اليابانيون أن موتاهم يشتركون في حياتهم اليومية ويقاسمونهم
آمالهم وآلامهم . ويجلسون معهم إلى مائدة الاسرة ويرعونهم ويعتبطون
برخائهم ورخاء اولادهم . اما حفلاتهم المشهورة من دينية وشعبية وعسكرية
فيشهدها موتاهم أيضاً وتقدم اليهم فيها القرابين ويسبح بمجدهم وفضائلهم
وأذكر أنى قرأت في ذلك للمفكر اليابانى الذائع الصيت (موتورى)
مامعناه أن الموتى لا يتحكمون في افكارنا واعمالنا فقط بل في العالم كله
أيضاً ، في تقلبات الفصول وعصف الرياح ونزوات النفس وشهوات البدن
وما يصيب الفرد أو الأمة من صعود ونحوس . وما الموتى في الحقيقة إلا

القوى الخفية الكامنة وراء شتى مظاهر الطبيعة التي يحار العقل في تعليلها .
تلك هي العقيدة التي تصطبغ بها الحياة القومية اليابانية والتي تدفع بالفرد
اليابانى إلى عبادة اسلافه واحترامهم وتقديرهم وحبهم وحب الأسرة التي
هي صنع أيديهم والوطن الذي يرمز اليهم والامبراطور - سليل الالهة -
الذى يمثل صفوة أرواحهم وجهودهم وما خلفوه للأحياء من عظمة ومجد .
ولم تؤثر الشنتوية وحدها في تكوين الأمة اليابانية بل ساعدتها في ذلك
البوذية أيضا . إذ الشنتوية - وهي العقيدة الغالبة في طبقة الخاصة - تقول
بوجوب انكار الفرد نفسه في سبيل أسرته ووطنه وامبراطوره أى في سبيل
موتاه الذين شيدوا صرح أمته . وتقول البوذية - وهي العقيدة الغالبة في
طبقة العامة - بضرورة التجرد واحتمال الألم وكبح جماحه والاذعان للمقدر
والتسليم بقانون تشتت المخلوقات المحبوبة وخلودها في أطراف الكون
اللانهاية الغامضة

فالشنتوية تربي الفرد على حب الاجداد وحب الوطن والبوذية تنمى فيه
خصائص الاحتمال والتجلد وهذان العاملان هما اللذان يفسران روح
التضحية الكاملة والبطولة الرائعة التي اشتهر بها الخلق اليابانى .

ومما يجدر بنا انعام النظر فيه قبل أن نوغل في هذا البحث ان ليس
هناك أى وجه شبه بين احساس اليابانيين بقداصة الماضى وحبهم اسلافهم
وتقديرهم لهم وبين أمثال هذه العواطف عند الغربيين .

وقد يعرف الاوربى كل شئ عن تاريخ اسلافه ولكنه لا يحبهم ولا
يشعر بوجودهم اليومى إلى جانبه شعور اليابانى وحبهم لهم

ان الاوربى ينتفع من الماضى بعقله فيدرسه ويحلله ويرغب في أن
يستحدث منه جديداً ليحسن تنظيم مشا كل الحاضر المعقدة ويستكمل الصورة

المبتكرة الطريقة التي يود ان يخلعها على المستقبل . انه ينقد أعمال اسلافه بحقله العلمى المتشكك اليقظ نقدا محايدا باردا لا تشوبه عاطفة الحب المتحمس ولا عاطفة المهابة والتقديس . انه يدرس الماضى فى محيطه المحدد وعصره المعين وزمنه الخاص وما استقر فى الحاضر من رواسته ، ولكنه لا يؤمن بتأثيره الابدى فى الفرد وفى مجموع الامة

انه يشيد بفضائل موتاه العظام ليقضى بهم ويلهب فى نفسه غرائزهم من أنانية وطمع ومجادلة وكفاح ، ولكنه لا يتخذ من أعمالهم قاعدة لهذه الحياة واحساسا دينيا ثابتا بمعانيها واغراضها ومثلها العليا

ان الغربى لا يؤمن بوجود صلة روحية يومية عاملة بين الخلف والسلف لا يؤمن بوجود الارواح وانما يؤمن بنفسه فقط وباستطاعته أن يحول -

على ضوء عقله العلمى - ما وصل اليه اسلافه من نتائج عظيمة ، الى مادة شخصية يصوغها وفق هواه ويبذع منها عظمتها المستقلة وعمله الخاص ولو خالف هذا العمل ما تواضع عليه السلف الصالح من نظم وتقاليد ومبادئ وآراء .

وهذا هو السر فى أن اليابانى وطنى بكيته والأوربى أو الأمريكى وطنى وفردى معاً أى أن اليابانى يود أن يفنى فى أمته ووطنه فحسب ولكن

الأوربى أو الأمريكى يود فى الغالب أن يخدم وطنه كمواطن وأن يخدم فى نفس الوقت فكرته كفرد مستقل حر وان تعارضت هذه الفكرة مع التقاليد

السائدة وكانت فى نتائجها أقرب إلى النزعة الانسانية منها الى النزعة الوطنية هذه الخواطر بعض ماعلق بذهنى من مطالعاتى أعمال كتاب ومفكرين

توافروا على دراسة اليابان كـ (لفسكا ديوهرن) فى مؤلفه (قلب اليابان)

و (رينيه جروسيه) فى كتابه عن الحضارات الشرقية و (هوفلاك) فى إبحائه

الممتعة عن الصين واليابان . وقد استعدت هذه الخواطر وأنا أطلع كتاب

(جولة فى ربوع آسيا) للأستاذ محمد ثابت مدرس الآداب بمدرسة الأمير

فاروق الثانوية .

وهذا الكتاب يصف الرحلة الأخيرة التي قام بها المؤلف إلى آسيا ويتناول الجزء الأكبر منه حياة اليابان وعاداتها وتقاليدها وأنظمتها السياسية والاقتصادية .

ولقد اتخذ الأستاذ محمد ثابت في كتابة رحلته أسلوباً يعرض لأشياء عرضاً متناسقاً ويعرف كيف يستعين بالملاحظة الدقيقة والاستنتاج المنطقي على إبراز مميزاتها وخصائصها والافاضة في شرحها وتحليلها ثم التعليق بما لها أو عليها من مختلف الآراء التي تسنح للمرء أثناء مشاهدتها والطواف بها . وقد اهتم المؤلف بدراسة اليابان دراسة مفصلة مسبهة لأنها الأمة الشرقية الوحيدة التي استطاعت ان تضارع اقوى امم الغرب نفوذاً وسلطاناً في أقل من نصف قرن ولأنه قد يكون من مصلحتنا ان نقف على بعض ما يتفق ومزاجنا من اساليبها في نقل الحضارة الاوربية . .

ويجدر بي ان اشير هنا قبل ان امضى في التحدث عن هذا الكتاب الى أن عصر النهضة اليابانية لم يبدأ إلا في عام ١٨٩١ — كما يقرر ذلك العلامة الفرنسي (لامازيير) — أي لما أن دالت دولة الحكم المطلق وحل محله النظام الدستوري الذي ألغى اقطاعيات الاشراف وقرر حرية التجارة والزراعة والصناعة وفصل بين الكنيسة والدولة وحطم نظام الطوائف واستبدل به نظام الطبقات الثلاث : النبلاء والعسكريين والشعب ، وابعح الزواج بين اهل هذه الطبقات وسهل للفرد ايا كانت طبقة احترام شتى المهن والطموح إلى اعلى مناصب الدولة وجعل الجميع متساوين امام القانون بغض النظر عن الطبقات التي ينتمون اليها .

ولكن الحكومة اليابانية ظلت على الرغم من هذا ذات صبغة ارسقراطية

اوليجاركية تبدو واضحة في تلك الهيئة التي يطلقون عليها هناك اسم (جنرو) وهيئة الجنرو مؤلفة من سياسيين محنكين يستشارون في امور الدولة ويقترحون تعيين رئيس الوزراء ويهتدى برأيهم في المشاكل العسكرية ويعين من بينهم وزير الحرب والبحرية . ويقول في ذلك الاستاذ ثابت « ان هذه الهيئة تحسب للرأى العام حسابا والرأى العام في اليابان قوى جدا فلمجرد احتجاجه على تصرفات الوزارة عام ١٩١٤ استقالت الوزارة وكذلك التي تبعتها عام ١٩١٨ وهي وزارة (تيروش) الذي كان ينتمى إلى هيئة الجنرو ويومئذ قام الناس باعتصاب الارز الذي اسقط الوزارة لوقتها »

وهذا حق . ولكن هيئة الجنرو هي هيئة تمثل بقايا عهد العسكرية والاقطاع ومجرد وجودها حية الى اليوم تستمد سلطانها السياسى من نفوذها التقليدى والحربى وتتدخل في شؤون الحكم ولاسيما في اعمال وزارتين خطيرتين كالخربية والبحرية كثير اما يؤثر في اتجاهات السياسة العسكرية في اليابان أعماق تأثير ولقد نشر البحاثة السياسى والاجتماعى (الكونت سفورزا) صاحب كتاب (بناء أوروبا الجديدة) مقالا في مجلة باريس بعنوان (الصين واليابان في منشوريا) وردت فيه هذه العبارة :

« يجب أن نسلّم بأن بعض المظاهر الاخيرة للسياسة اليابانية تبدو لنا كأنما قد أوحى بها مصالح الطبقة العسكرية والاقطاعية وتقاليدها أكثر مما أوحى بها رغبة مجموع الشعب »

وهذا يدلنا على مبلغ نفوذ هذه الطبقة وخطرها . ويلوح الى استنادا الى حوادث اليابان الاخيرة وبرغم الصلح المؤقت الذى عقد أخيرا بينها وبين الصين أن السياسة اليابانية تعمل اليوم لمصلحة بعض دول أوروبا .

إذ من مصلحة إنجلترا ولا شك أن تسترسل اليابان في طغيانها الاستعماري في منشوريا وأن تمنى نفسها ببسط نفوذها على سيبيريا الشرقية وتأسيس امبراطورية آسيوية عظيمة بحيث يفضى هذا كله الى نشوب صراع بينها وبين روسيا أو الولايات المتحدة يضعف أمريكا ويهز دعائم النظام السوفيتي الذي يسعى ساسة أوروبا للقضاء عليه وعلى نفوذه في الصين .

واليابان تستغل هذا الموقف وتتقدم نحو تحقيق غاياتها الاستعمارية خطوة بخطوة وتمضي في بسط نفوذها على منشوريا كما بسطتها بالأمس على كوريا تمهيداً لإنشاء الامبراطورية العظيمة التي تطمح اليها

والواقع انه لو استقرت الأمور لليابان في مستعمراتها الجديدة الحافلة بالمناجم وهذا فرض جدلي فستتزوج بواسطتها ولا شك بأحدث وسائل الانتاج وارقاها وعندئذ تصبح أوروبا كما يقول (هنري باربوس) بين قوتين تجاريتين مزاحمتين هائلتين : قوة الروس وقوة اليابان فلا تجد مندوحة عن مد شباكها وبذر بذور الحرب في آسيا وهي لابد مسنعية لبلوغ هذا الغرض بتلك الطبقة العسكرية الاقطاعية ذات النفوذ الواسع في اليابان

ولكن هل تدع أوروبا النفوذ الياباني يتضخم في منشوريا ويستقر ؟ أ كبر الظن ان الامر على النقيض وان أوروبا تستعرف كيف تخلق الصعاب لليابان عند الحاجة وتستخدم لاغراضها المعارضين لدولة منشوريا الجديدة والشيوعيين الصينيين واهرار كوريا الذين ما برحوا ينادون باستقلال بلادهم ويضجون في هذا السبيل بكل عزيز وان اسراف اليابان في اغراق أسواق أوروبا ومستعمراتها بمختلف بضائعها سيضطر الاوربيين في النهاية الى التسالب عليها وعرقلة جهودها في منشوريا ودفعها الى الدخول في حرب ضد أمريكا أو روسيا

أما حلم اليابان بتدوين الصين والانتصار الهائى عليها فلم باطل أجدر باليابانيين الحذر منه وعدم الاستسلام له إذ الصين كما يقول (السكونت سفورزا) أشبه بكرة هائلة من المطاط تحتمل شتى أنواع الضغط ولكنها سرعان ما تعود إلى حالتها الأولى عند ما تفتر وطأة الأصابع التى ضغطت عليها متمنية سحقها

والدليل على ذلك أن اليابان قد استطاعت أن تحصل فى منشوريا منذ عشرين عاما مضت على عدة امتيازات رسمية ولكن عدد رعاياها القاطنين بمنشوريا لم يبلغ برغم هذا أكثر من ١٨٦.٠٠٠ يابانى فى حين أن عدد الصينيين - فى منطقة السكة الحديدية حيث لليابان أوسع سلطان - كان يقدر بخمسين ألفا منذ عشرين سنة فاصبح اليوم يربى على ٨٥٦.٠٠٠ ألف .

وصفوة القول أن السياسة الاستعمارية التى تروج لها فى اليابان تلك الطبقة العسكرية التى أشرنا إليها لن يكون منها إلا انها سوف تخدم المصالح الأوربية فى آسيا

أما عن النهضة الصناعية فى اليابان فإليك ما يقوله الأستاذ ثابت .
« إن الدولة هى التى فتحت المصانع ولاتزال تديرها وهى التى أوفدت الطلبة ليتعلموا الصناعة والتجارة فى الخارج واستقدمت الخبراء من الأجانب وأنشأت المدارس الحكومية وفتحت الغرف التجارية ولاتزال تمنحها الإعانات المالية . كذلك أقامت المعارض الصناعية فى كل البلدان وهى التى تزود التجار بالمعلومات عن الاسواق الخارجية وحتى المصانع التى انتقلت إلى أيدي الافراد لاتخلو من الرقابة الحكومية . والحكومة تمنون المصانع كلها بالقروض والإعانات المالية وتشرف على الهيئات التعاونية التى تفوق الالف والتى تتعاون على تنظيم الانتاج والتصدير وظروف البيع ولهذه حق قانونى فى فحص صادرات البلاد محافظة على سمعتها الصناعية فى الخارج . . .
إن النهوض الصناعى فى اليابان جاء فى عصر ظهر فيه فضل الانتاج الكبير

الذى لا يقوى عليه الفرد بل الجماعات والمتعاونات وشعر الكثيرون بضروة معاونة الحكومة وتدخلها في تحديد المزاومة . والاشراف الحكومى فى اليابان منطبق على نظمها الاجتماعية التى تقضى على الأفراد بالطاعة للأسرة والولاء للدولة فهم جميعا يؤيدون التعاون بفطرتهم ولا يشقون بالمجهود الفردى رغم ما لهذا من اثر سىء فى القعود بقوة الابتكار . . . »

وفى رأينا ان قوة الابتكار الصناعية كان لابد من توفرها فى عصر الصناعات اليدوية اما اليوم وقد انتشرت الآلات واتبعت طريقة الانتاج التجمعى الكبير الذى يعنى بالكمية أكثر مما يعنى بالكيفية فخير طريق لتنظيم هذا الانتاج هو النظام اليابانى الحالى الذى يخول الحكومة حق الادارة او الاشراف على وسائل الانتاج

ولكن ادارة الحكومة أو اشرافها على وسائل الانتاج لا يمكن أن يعود بالفائدة على المجموع ولا سيما على المنتجين من أبناء الشعب الا اذا كانت الحكومة تمثل الطبقات العاملة المنتجة تمثيلا صحيحا كاملا . اما فى اليابان فالحكومة ما تزال كما أسلفنا رستقراطية الطابع ولذلك يضطهد العامل اليابانى ويرهق أرهاقا فظيعا مقابل أجر ضئيل حقير هو الذى يسمح فى الواقع لأصحاب الشركات باغراق الاسواق العالمية والتفوق فى التنافس التجارى

أما الفلاح اليابانى فلم يتطور بعد وفى هذا يقول الأستاذ ثابت : « إن الفلاح اليابانى شبيه بالفلاح المصرى ، حتى فى معيشته لا يزال كما كان أجداده فى الملابس والغذاء والاختصاص الخشبية والملاهى وحتى رأس السنة لا تزال فى الأرياف بالحساب القمري (تام الشبه بفلاح مصر) . والفلاح لا الصانع هو ممثل السواد الأعظم هناك ويقوم بأعمال أخرى الى جانب زراعته وأخصها تربية دودة القز واستعمال الأنوال اليدوية للقطن ، وصناعة

صناديق الخيزران والورق تطلّى باللاكيه . كل ذلك يصنع في البيوت ويسلم للمتعهدين من التجار . ويشتغل مليون فلاح ونصف مليون بصيد السمك عماد غذائهم الحيوانى . وقد تعجب لبقاء تلك الصناعات رغم مزاحمة الانتاج الحديث لها لكنك إذا علمت أن غالبها يتعلق بالغذاء والملبس والمسكن وان هذه لها نظامها الخاص المختلف عن سائر بلاد العالم زال العجب . ولم تنجح الآلات الضخمة إلا فى الاشياء الغريبة عن البلاد التى تصنع للتصدير لالاستهلاك الداخلى »

ومعنى هذا ان الآلات الضخمة تعمل لمصلحة بعض الممولين المصدرين من أهل المدن وأن السواد الأعظم من الشعب ما يزال على حاله الاولى وان هذا التقدم الصناعى لم يقترن بتقدم شامل عميق فى الافكار والمعتقدات والتقاليد لانه انما يقوم على الابقاء على هذه العوامل حية نامية فى نفوس الشعب . ومن مساوىء التقاليد اليابانية أيضا تشجيعها الزواج المبكر وعدم شعور الآباء اليابانيين بما عليهم من مسؤوليات نحو ابناءهم لان رعاية البنين فرض على الاسرة بأكملها لا على الأبوين فقط .

وهناك ظاهرة أخرى وهى ان الدين الشنتوى يحض على التناسل وينفر من الزواج العقيم . والحكومة تعرف هذا وتحسن استغلاله ولا تسمح بقيام أمة دعاية تحض على تحديد النسل دفاعا عن الناحية العسكرية من نظام الدولة وقد ترتب على هذا ان تكاثر عدد السكان فتعللت به الحكومة للشروع فى الفتح والاستعمار

واسمع الآن مايقوله الاستاذ ثابت . « يتساءل الكثير عما إذا كانت المدنية الغربية ستكتسح تقاليد اليابان ونظمها . ونحن نلاحظ أن روح

الاقطاع لاتزال تسود النظم السياسية وان النظام الاجتماعى والاقتصادى سيمظل شرقيا بتهديب بسيط . فدعائم المدنية لاتزال هناك شرقية بحثة لان اليابان لاتثق بفلسفة الغرب وأخلاقه واجتماعياته ودينه وسياسته ولايزال الناس يحافظون على مساكنهم وملابسهم ومعابدهم وألعابهم أما طرق المواصلات ونظم المدارس والمصانع والمصارف وما اليها فاضحت غربية بحثة لذلك ننس هناك التصادم بين المدينتين فى أشياء كثيرة »

وهذا فى عرفى هو الجانب الخطر فى النظام اليابانى . ونحن بصفتنا أمة شرقية ناهضة علينا ان نعلم النظر فيه ألا نؤخذ بسلطانه الظاهرى أو نخضع فترى فيه مثل التطور الاعلى . إذ ليس المهم فى أمة من الأمم ان ترقى الدولة فحسب بل يجب أن يرقى الافراد أيضا . وكل رقى صناعى لا يستتبعه رقى فى الاخلاق والعادات والافكار والتقاليد لا يكون من شأنه إلا ان يبق سواد الشعب على جهله فريسة للمموين والبيروقراطيين ورجال الدولة والمهم الا يتناول التطور الحياة لاقتصادية فى الامة فقط بل ان ينفذ إلى حياتها الدينية والاجتماعية فيجدها وينعشها ويلأئم بينها وبين ماوصلت اليه من رقى مادى

والسبيل الى هذا هو ألا تملأ الحكومة الشعب على تقاليده البالية وألا تتخذ من هذه التقاليد دعائم تشيد عليها صرح قوتها وأن تفصل بين الشؤون الاقتصادية والسياسة وبين الشؤون الاخلاقية والدينية وان تطلق حرية الفكر إلى ابعد مدى كى ينمو فى الفرد إحساسه بالكرامة والحرية والمسؤولية والاستقلال الشخصى فيستطيع أن يحدد فى الاخلاق والعادات والعقائد والفنون والآداب وان يشرف على عمل الحكومة ويراقبه وينقده وما قيمة أمة لاتعنى برقى جميع افرادها على السواء بحيث تسهل لكل منهم الاشتراك الفعلى المباشر فى مراقبة شئونها وإدارتها ؟

ماقيمة أمة يستعبد أغنياءها فقراءها وتجهيز الدولة فيها على عقول ونفوس
فلاحها وعمالها وهم أغلبية الشعب الساحقة ؟

بل ماقيمة أمة تقلد جهدها حضارة القرن العشرين ثم تغذى معظم
أفرادها بثقافة القرون الوسطى ؟

مما لا ريب فيه أن الدولة يجب أن تتطور وتقوى وليكن ليس على
حساب الفرد بل بواسطة الفرد ومن أجل رقيه وسعادته . وهذا هو جانب
النقص في اليابان الحديثة

الأوريون وغاندى

ان غاندى رسول دينى وزعيم وطنى وقد استخدم دعوته الدينية لتحقيق مطالبه الوطنية أى فى سبيل غرض مادى . هذا على ما أعتقد هو الذى يقدره الأوريون فيه .

فهم ينظرون اليه نظرهم الى شرقى متصوف استطاع تطهير عقائده الدينية من نزعاتها الخيالية المحضة ، وعرف كيف يربطها برباط الواقع ويشير بهذه الوسطة نفوس الملايين من الآسيويين العجزة صرعى الخيالات والأحلام . أما جوهر رسالته الدينية والفلسفى والخلقى فأكبر ظنى أن الأوريين لا يحفلون به كثيرا إذ هو يدعو إلى نقيض المبادئ التى أقاموا عليها حضارتهم .

فالأورنى يعجب بغاندى ويقدره لا لأنه قديس ولا لأنه يروض نفسه على الزهد والتشقىف فأمثاله من الزهاد والمتصوفة فى الهند كثيرون بل لأن غاندى رجل عملى الى أبعد حدود هذه الكلمة . يخاطب الأوريين بلغتهم وبيناهو يلوح لهم بأسمى النظريات الروحية اذا به يصيبهم فى مصالحهم ويحاول أن يهز امبراطورية عظيمة من الاعماق .

وليس معنى هذا أن الرجل منافق وانه يصطنع القداسة يستعين بها على قضاء أغراضه العملية .

كلا . فهو صادق، مؤمن بأن المحبة واجتناب العنف والتضحية هى خير الفضائل وخير الوسائل لتحقيق استقلال بلاده .

وقد تكون هذه الفضائل خير ما يتلاءم والروح الهندية في سعيها نحو الحرية أما أن يعتقد الاوربيون بصلاحياتها للحياة اليومية والجهاد السياسى وتكوين أمة عصرية متحضرة فهذا ما شك فيه

ان غاندى ينادى بالعودة الى الحضارة الزراعية الفطرية ومقاولة الشر بالخير وإيثار ملذات الروح على ملذات البدن ولكن الحضارة الحديثة ترى الخير كل الخير فى العمل والانتاج الصناعى وتوفير أسباب الرفاهية لا كبر عدد ممكن والكفاح لحماية هذه الرفاهية والاستزادة منها ولو على انقاض المهزومين من الشعوب الشرقية المستعبدة ومن نفس الشعوب الضعيفة التى تعتنق الحضارة الاوربية

ولقد ظهر تولستوى قبل غاندى فهللت أمم الغرب لفنه وعدته أعظم قصصى انجبه القرن التاسع عشر ولكنه ما أن نضاعنه ثوب الفنان وارتدى مسوح الراهب وراح يبشر بمثل التعاليم التى يبشر بها غاندى اليوم حتى ثارت ثائرتهم عليه ورموه بالحقاقة والجنون ومجده بعض مفكرهم على اعتبار أنه داعية من دعاة المثل الخيالية العليا فحسب ، وانه لهذا السبب وحده حقيق بالتجلة والخلود . . .

ورب معترض يقول ولكن تعاليم المسيح وتولستوى وغاندى الدينية والاخلاقية قد تصلح للتعامل بين الافراد إن لم تصلح للأمة كمجموع .

ولكن الحقيقة أنها لم تعد تصلح للفرد الاوربى الحديث . بل هى تتعارض مع جو الحياة الذى يسبح فيه وان حضارة تقوم على التفنن فى استنباط وسائل الرخاء المادى . وعلى يرية روح المزاحمة والتفوق الاقتصادى ، وعلى استخدام وسائل القتل والتدمير لا لنماء صناعة من الصناعات أو ايجاد منفذ تجارى جديد ، لهى حضارة لا تعلم الفرد الخنوع والاستخذاء ومقاولة

الشر بالخير بل هي تعلمه أن من لا يأكل كل يؤكل ومن لا يبرز في الطليعة يداس بالأقدام ، وان كل شر لا يقابل بمثله يستفحل وينقلب خطرا على الفرد والمجموع

فالجزء العملي من تعاليم غاندى هو الذى يسترعى اهتمام الغرب . أما الجزء الروحي فلا يتلاءم ألبة وطابع المدنية الحديثة .

وغاية ما تخشاه أوربا أن يفصل الهنود بين غاندى كزعيم روحي وغاندى كزعيم سياسى ، وأن ينبذوا تعاليمه الروحية الإنسانية ويأخذوا بخططه الوطنية العملية كالمقاطعة والعصيان المدنى ثم يقرنوها بالفضائل الغريزية القائمة عليها المدنية الأوربية أى فضائل الكفاح والقوة والتفوق والمنافسة والرفاهية المادية والشعور الدائم بأن الأصلح والأسبق هو الجدير بنعمة الحياة

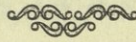
ولكن هذا الذى تخشاه أوربا بوجه عام وبريطانيا بوجه خاص أصبح لا يقاس بالنسبة الى التطور الجديد الذى وصلت اليه النفسية الهندية

والواقع أن غاندى قد أصابه هذه الأيام فشل مزدوج فى الجانبين الروحي والعملي من سياسته . فلا عقائده الدينية ولا خططه العملية « السلمية » أفادت فى مفاوضاته مع الإنجليز وحملتهم على الاعتراف باستقلال الهند ولذلك اخذ رأى العام الهندى يتحول دفعة واحدة من أقصى الاعتدال الى أقصى التطرف ، ومن خطط غاندى العملية « السلمية » كالمقاطعة والعصيان المدنى الى خطط الارهاب والى الافكار والمبادئ الاشتراكية المتطرفة التى يدعو اليها الزعيم جوهر لال نهرو .

ومسئولية هذا الانقلاب تقع على عاتق السياسة الانجليزية التى افلتت من يدها فرصة الاتفاق مع غاندى فى الوقت المناسب

وهكذا معظم شعوب الشرق المستعبدة يدفعها ضعفها وروحانياتها الوراثة
الى بدء كفاحها بالوسائل السلمية فاذا ما طال عليها الزمن ولم يقدر الخصم نبيل
جهادها وعظمة تضحياتها وراوغ وماطل واجتهد في كسب الوقت والحق
بها الفشل ، استحال يأسها الى قوة متحدية مغامرة مستقلة لا تفكر في تعديل
خطط الجهاد وفق نزعات الروح السلمية السلمية بل تطفر دفعة واحدة الى
قطب التطرف والعنف

وهذا هو الدرس الذي تلقيه الحركة الغاندية على الانجليز والاوربيين
جميعاً



الشخصية الانسانية

يحاول معظم علماء النفس المعاصرين أن يثبتوا أن الشخصية الانسانية قوامها الفوضى ، وأن عواطفنا وميولنا ليست مملكتنا وإنما هي ملك الغريزة والبيئة والوراثة والظروف تتحكم فيها وفق هواها وتسيرنا برغم ارادتنا في الطريق الذي تريد

فنحن في زعم أولئك العلماء مخلوقات غامضة مهمة مشردة على سطح الحياة تعتقد أنها ذات عقل مستقل وعزيمة ماضية وإحساسات محددة وبما هي في الحقيقة إلا مجموعة من الظلمات والمناقضات يدesh لها كل إنسان ذكي عرف كيف يهبط إلى قرارة نفسه ويلاحظها ويفحصها ويحلل أجزائها ويرد انفعالاتها إلى الاصول الخفية التي انحدرت منها

فعند ما يشعر الفرد بلذة الإعجاب مثلاً حيال زهرة جميلة ، أو عادة فائقة ، أو غروب شمس رائع جليل ، يقول أولئك العلماء ان الاصل في الإعجاب بالزهرة أو العادة أو غروب الشمس هو حادثة معينة وقعت لنا في ماضى حياتنا واتصلت بهذه الاشياء الجميلة ، واندست في عقلنا الباطن ، واستيقظت الآن بحكم الحوادث والظروف المتشابهة وبدافع الذكرى التي ترسب في نفوسنا ردحا من الزمن ولكنها لا تموت .

وعند ما يشعر الفرد الذي قضى الاعوام الطوال في رياضة نفسه على

فضيلة العفة انه قد استحال فجأة الى وحش ثائر مجنون وانه يرتكب جريمة الزنا بل وينتهك عرض عذراء بريئة بلا وازع من خلق أو ضمير يؤكده العلماء أن السبب في ذلك يرجع الى الاسراف في العفة والى كبح العوامل الجنسية الطبيعية في النفس والى ان هذه العوامل يهدأ ثورانها في الظاهر ولكنها ما تزال تتجمع في عقلنا الباطن حتى تلهبها الظروف فتعصف بنا وتستبد بمبادئنا وتهدم صرح الفضيلة الذى شيدناه بعقلنا ودمائنا

وعند ما يعتنق الفرد مذهباً من المذاهب الدينية أو الاجتماعية أو الفلسفية يذهب بعض أولئك العلماء الى أن الحقيقة ليست هى فى الواقع الغاية التى أعتنق الفرد من أجلها هذا المذهب ، وإنما مزاجه هو الذى دفعه اليه فأناقد أكون بحكم مزاجى وأعصابى وتقاليدي يبتغى من المتجردين المتأملين ذوى الخيلات الشعرية الوثابة فأعتنق مذهباً من المذاهب الروحانية . وأنت قد تكون من العاملين فتعتنق مادية الحضارة الحديثة وغيرنا قد يكون حاد العاطفة ، دموى المزاج ، فيعتنق المبادئ الثورية الهادمة وهكذا كل بحسب طبيعته والتربية التى تلقاها والوسط الذى نشأ فيه

ويقول ذلك الفريق من العلماء أيضاً ان جوهر النفس الانسانية أبعد ما يكون عن الوحدة . وان النفس موزعة الالهواء والاحساسات وان لكل منا عدة شخصيات تخلقها الحوادث القوية المتعددة التى تمر بها فى حياتنا اليومية . فهناك رجل تلجئه الظروف الى احترام مهنة لا يشعر من نحوها بأى ميل فتكون فيه شخصية مطابقة لضرورات تلك المهنة . ولكنه لا يكاد يفرغ من عمله اليومى ويجتمع برفاقه الذين يحبهم حتى يتلبس بشخصية جديدة مريحة ينفس بها عن صدره ويجهده أن يوفق بينها وبين الجو الجديد الذى يعيش الآن فيه ..

وهذا الرجل نفسه لا يلبث أن يدخل الى بيته ويتصل بزوجه التي يكرها
لأسباب وعوامل تجمعت أثناء حياتهما الزوجية حتى يتلبس بشخصية ثالثة
وينقلب انسانا قاسيا وضيعا شريرا ينكره أصدقاؤه الذين شاهدوه منذ لحظة
ييسم ويضحك وينكت ويمثل دور الانسان السعيد

هذه الشخصيات الثلاث تحيا في هذا الفرد جنبا إلى جنب وتدهش المتصلين
به وتبدولهم مظاهرها كأنما هي سلسلة من المتناقضات فتراهم يصرون على
صاحبها أحكاماً غريبة طائشة فيقولون عنه انه غير متزن الاعصاب أو انه
منافق أو انه مجنون في حين انه مثلي ومثلك مجرد انسان !

وعليه فالماضى يتحكم فينا ومن حوادثه تتسكون عواطفنا وانفعالاتنا ،
والشهوة تتحكم فينا لان قوانين المجتمع وآدابه ترغمننا على سترها وكبحها ،
ومزاجنا يتحكم فينا لانه نتاج اعصابنا ووراثتنا وتربيتنا وتقاليدها . ومن
اجتماع هذه العناصر تتألف شخصيتنا الرحبة المعقدة التي تحمل بين أطوائها
جرائم عدة شخصيات أخرى

ويقول في ذلك العلامة فرويد « كلما أمعنت في تحليل نفسي تبين لى أن
في عقلى ودمى عالم من الشخصيات . ولقد تمررنى أوقات أشعر فيها أن فى وسعنى
أن أكون جنديا باسلا أو نبيا عظيما أو شاعرا عبقريا أو متشردا يضرب فى
مناكب الارض . جميع هذه الشخصيات تعيش فى وتتقاتل وما سعادتى إلا
فى أن احيا هذه الحيات كلها وأنا جالس الى مكتبى فى غرفة مطالعتى الهادئة »
ويقول أستاذ علم النفس الفرنسى البروفسور أرنست دوبريه : « لقد
دلتنى تجاربى على أنى إنسان متقلب غريب . فتارة أحس انى فاضل وتارة أخرى
انى شرير بل أكاد أشعر فى بعض الاحايين انى فاضل وشرير فى نفس الوقت
وان العاطفة الصالحة التى - امرنى الساعة لا تلبث أن تقترن بعاطفة سيئة
وان العاطفتين تتجاوران وتتحدان فى منطق سرى يحيرنى ويذهلنى وتتكرر

حياله رغبة الخير التي ينصحني باتباعها عقلي فانا من عواطفى فى حرب دائمة أحاول أن أفهمها وأحكم الصلة بين أسبابها وأرجع بهذه الأسباب الى مصادرها، ولو انى تهاونت فى هذا الجهاد لحظة واحدة لما أبصرت فى نفسى غير الظلام والفوضى « نستطيع أن نستخلص مما تقدم أن حياتنا أشبه بالسيل الجارف غير المنظور وان إحساساتنا وميولنا كالمياه المتدفقة المختلطة المنحدرة من جوانب مجهولة لتتوزع فى طرق ومنعرجات متضاربة مجهولة أيضاً . وان شخصيتنا أشبه بطائر خرافى ينتقل من غصن الى غصن ومن جو الى جو وله فى كل غصن حياة خاصة وفى كل جو شقاء مستقل أو سعادة مستقلة فكأنما الكون بأسره مسرحه وكأنما ألوانه انعكست كلها فيه وحده فهو الذى يمثل الطبيعة وهو الذى يعبر بمتناقضاته عن محيطها الهائل البعيد الغور

وإذن فما هو موقفنا حيال فوضى نفوسنا . وماذا يجب ان نفعل كي نقف بجلاء على كل ما يدور فى اخلاذنا . وكيف نقر النظام فى أرواحنا . بل كيف نعيش بسلام وفيها مئات الشخصيات المتنافرة، والمجتمع يطلب اليها الظهور بشخصية واحدة متناسبة مترتبة منطقية . بل كيف نعيش ونعمل فى رقى متواصل وأفكارنا وميولنا مشوشة غير متجانسة والعمل والرقى يفرضان على الفرد منا التوجه بقواه نحو غرض أو أغراض معينة لا تتفق بأى حال من الأحوال مع التشوش والفوضى ؟

كانت الانسانية تهتدى فيما مضى بوحي العقائد ولكنها تسترشد اليوم بوحي العقل وحده وبما يقر العقل أنه صالح وصحيح سواء أ كان قواعد اخلاقية أم آراء اجتماعية أم مذاهب علمية . فالعقل هو الذى أقام حضارتنا وهو الذى لا مفر من أن يقوم عليه بناء شخصيتنا . وليس من المنطق فى شئ أن نعتق حضارة تستند إلى العقل ثم نحاول بناء شخصيتنا على مبادئ وعواطف وعقائد ينكرها العقل .

وأول ما يجب أن نفعله كي ننمي خصائص العقل فينا هو ألا نكتفي بالتعلم فقط بل يجب أن نشرب نفوسنا حبا الثقافة اذ التعلم جهاد في سبيل الرزق والتثقف جهاد في سبيل التفوق والكمال.

ومن الناس من يتعلم وينجح ويفوز بأعلى المناصب ثم يظل مع ذلك عبدا لنزواته ملكا لغرائزه أجهل ما يكون بحقيقة شخصيته وما ينبغي أن يتخذ من مختلف التدابير كي يفهمها ويدرأ شرها ويحسب حساب أسرارها وتقلباتها. أما ذلك الذي يقبل على التثقف الشامل المطرد فشله كمثل رجل ولد في قصر عظيم الا ان كلا من أبواب هذا القصر مغلق بقفل خاص فاذا لم يوفق الرجل الى صنع مفتاح لكل قفل وباب كان في القصر كالا سير ولم يستطع أن يمتلكه وينعم بما فيه

والقصر هنا هو النفس البشرية والأبواب المغلقة أسرارها والمفاتيح هي المعارف وكل معرفة تفتح بابا وتكشف سرا وتمكن الانسان من بسط سيادته على نفسه وعلى كل ما يحيط به.

هذا هو معنى التفوق الذي تحققة الثقافة ، تفوق الانسان بعقله على الفوضى الشائعة في شخصه وفي العالم.

ولكن على أية قاعدة يجب أن تستند الثقافة كي تزهر وتؤتي ثمارها لا أتردد في المصارحة أن هذه القاعدة هي الحرية . وأن شرط الثقافة الأول والأخير هو أن نحرر عقولنا من التقاليد والخرافات وأن نقدم على التفكير الحر غير حافلين بما قد يصيبنا من نتائجه وأن نبتغي الحقيقة لوجه الحقيقة . أما اذا استبدت عقائدنا وتقاليدنا بعقولنا وعواطفنا وراحت تملئ علينا نوعا خاصا من التفكير والاحساس ، كان ذلك منا عبودية وتقهقرا وجهلا مستورا يحول بيننا وبين معرفة العالم وبالتالي معرفة أنفسنا

فينبغي أن ننشد الحرية المطلقة لأن الشخصية القوية هي الشخصية الحرة والشخصية الحرة هي التي تؤسس حرية الفكر وحرية العقيدة وحرية الوطن ومقى استطعنا أن نفهم أنفسنا بفضل الثقافة واستخاضنا من ثقافتنا وحریتنا مبادئ ورغبات أردنا تحقيقها في الحياة العملية وجب أن تغلب في الوقت نفسه على ميولنا الوضيعة وأهوائنا الشاذة وأن نسد جميع قوانا نحو الغاية التي نسعى للوصول إليها . وهنا نحتاج الى القدرة على العمل والقدرة على التنفيذ . والقدرة على المثابرة ، نحتاج الى خلق أى الى ارادة

ولا فائدة من الثقافة والحرية والعمل بدون ارادة عاقلة حازمة لا تهدأ ولا تكل ولن تكون هذه الارادة فينا الا بالترية القائمة على أساس علمي . أى على الملاحظة والاستنتاج والاستقرار والمغامرة والاعتماد على النفس والشعور بالمسؤولية والاستهداف للخطأ كأفضل طريق لمعرفة الصواب .

فالفرد الذي ينشأ هذه النشأة لا يكتفى باستظهار المعلومات وترديدها كالبيغاوات بل يتصل بالاشياء اتصالاً عملياً مباشراً يلاحظها ويحللها ويستنتج بواطنها من ظواهرها ، وهكذا يحس معنى الارادة ويتذوق لذة الحرية ، فاذا أقدم على التثقف أمكنه بزعمته الحرية أن يفهم شخصيته وحقيقة العالم وإذا أقدم على العمل والتنفيذ أمكنه بارادته أن يقتحم الصعاب ويذل العقبات ويتفوق على ضعفه الغريزي

فالترية العلمية الحرة في سن الطفولة والحداثة ، والثقافة الواسعة الحرة في سن الشباب والرجولة والشيخوخة ، والارادة المثابرة الحرة في جميع أطوار الحياة . هذه هي العناصر التي تخلق شخصيتنا وتساعدنا على توجيهها وجهة معينة نافعة وتمكننا من احلال النظام فيها محل الفوضى والوحدة محل التفرق والتوزع ، والنصر العمل الملموس محل التأملات العقيمة الباطلة

وبرغم كل هذا فان هناك عنصراً آخر من الاهمية بمكان عظيم . عنصر خفي غادر يتحاشى الناس النظر فيه عادة والبحث في شتى ظواهره . عنصر جبار

يقض مضاجعنا ويقلق راحتنا شبانا كنا أم شيوخا . عنصر يجب أن يسود
العناصر السالفة والا امتنعت عن تأدية وظائفها ودب فيها الشلل . وهذا
العنصر هو المسألة الجنسية

ونحن تجاه هذه المسألة أبداً في حيرة وخوف واضطراب في حين اننا
نظمنها وفق مبادئ العقل والحكمة لساعدتنا على العمل وضاعفت من
نشاطنا وانتاجنا

وأنا لست من أنصار الحرمان في المسائل الجنسية ولا من دعاة التبتل
ويقيني أن الحرمان لا فضيلة فيه . وإني لأؤثر الإنسان الذي يتمتع تمتعاً مشروعاً
ويعمل بنشاط على ذلك الذي يحرم نفسه ويعمل وهو كئيب ثم يزعم أنه
قوى وأنه أفضل من سواه

وليس ثمة من شك في أن من ينظم غرائزه الجنسية يشعر بالراحة والفرح ،
والفرح يزيد في قدرة المرء على العمل . أما كآبة أدعياء الفضيلة من المتألفين
المحرومين فعارض يمكن للميول الشاذة والأعراض العصبية ويقف حجر عثرة
في سبيل العمل والانتاج

وليس المهم أن تتبتل وتزهد بل أن تكون لك قوة إرادية تستطيع
بها الانصراف عن الشهوة والتحرر منها بمحض ارادتك عندما تشعر أنها
سوف تضربك ، هذا هو الاستحقاق . وتلك هي القوة .

فاذا استعبدتك شهواتك فأسرفت فيها كان ذلك وبالاً عليك وإذا استعبدك
الحرمان كان ذلك وبالاً عليك أيضاً

والواجب أن تحس بالحرية حيال الشهوة وأن تتوسط وتأخذ منها
بالقسط العادل المشروع

وخير ما نختم به هذا المقال تلك العبارة التي طالما ردها البروفسور
ارنست دوريه على تلاميذه :

إن العامل الأكبر في تكوين شخصيتنا هو الحرية . وأن الفرد كالآلة لا مجده ولا حياة ولا رقي بدون حرية .

« في المسئلة الجنسية أيضاً »

يعلق العلامة سيجموند فرويد في أبحاثه النفسية الشهيرة أهمية كبيرة على دور الطفولة والحداثة ويقول ان الغريزة الجنسية هي الحافز الحيوى للانسان وهى التى تخلق فى الصبي عواطف وميولا مشوشة مضطربة أبعد ما تكون عن فضائل العفة والاحتشام .

فالصبي فى عرف فرويد ليس هو المخلوق البرى الطاهر الساذج الذى نتوهم ، بل هو شيطان صغير ملء رأسه الأفكار والخيالات والعواطف الجنسية الحادة . وماحب الصبي لأهله وميله الى الطلاقة والمرح وتعلقه الشديد بأشخاص معينين سواء أكانوا من أقربائه أم من أصدقائه أم من أساتذته إلا أعراض يرددها «فرويد» الى عوامل جنسية محضة لا تنفك تجارها قوانين المجتمع وآدابه حتى تكسبها فتنس في (العقل الباطن) ثم تأخذ فى الظهور وقتابعد آخر فى شكل هوى ساذج أو احساس عنيف أو ميل شديد الى المرح أو نزوع الى الوحدة أو توق الى الحزن أو ولع بالتستر والكذب والنفاق مما يلحق أكبر الضرر بخلق الصبي ويؤثر فى أدوار حياته كلها . فالغريزة الجنسية القاسية بخيالاتها وصورها وماتولده هذه الخيالات والصور من تفاعلات نفسية خفية تعمل عملها السرى فى العقل الباطن . وآداب المجتمع الصاردة تحول بين هذه الغريزة وبين التكشف والارتواء فتتحول رغباتها عن طريقها الحيوانى الطبيعى ولا تجد متنفسا لها الا فى الميول والعواطف المريضة أو الشاذة التى تسمم وجدان الصبي وعقله وترغمه على النظر الى الجانب الجنى من حياته وحياة الآخرين نظرة الخوف والهوس والعبودية والرياء .

فرغبات الصبي الجنسية المرتدة الى عقله الباطن تتجمع في ذلك الحيز الضيق وتعتقد هناك مؤامراتها وتجتذب اليها رغبات أخرى وأفكاراً أخرى ثم تتضخم وتنطلق فجأة وقد استحالت في نفوس الصبيان الى عواطف مركبة مشوشة تبدو لنا - نحن الكبار - غريبة لأننا نجعل أو نتجاهل سرها ولا نود أن نعرف صراحة بأن مبعثها الغريزة الجنسية المحتجزة لفرط ما نخشى سلطان هذه الغريزة وحكم آداب المجتمع عليها

ويرى علماء التربية المعاصرون وعلى رأسهم الاستاذ فالون ومدام منتيسورى أن من واجبن أن نمزق هذا الحجاب الجنسى الذى يسدله المجتمع وأدابه على شخصية الصبي . أن نحرر الصبي من طغيان الغريزة الجنسية التى تحتل عقله وجسمه وتبتليه بضرب من جنون الفكرة الثابتة

فن واجب الأم في البيت ان تلاحظ تطورات شخصية ابنها وان تباعد جهد الطاقة بينه وبين المناظر والمشاهد التى قد تلهب فيه الخيال الجنسى وان تصرفه عن خلطة صديق معين يشعر من نحوه بميل طارئ . يشوبه الاسراف وان تبجته في صقل ميوله الحيوانية وتحولها عن مجراها الغريزى والتسامى بها الى مختلف أنواع اللهو البرىء كأن تغريه بالاقبال على الألعاب الرياضية وسواها من ألعاب التسلية أو تقتاده الى الحدائق والمتنزهات لتعلمه كيف يتذوق جمال الطبيعة أو تدفعه الى مطالعة القصص الرائعة ذات الحوادث القائمة على الشجاعة والاستبسال وشتى الصور الشعرية المتصلة بحقائق الحياة أو تدربه على ممارسة الموسيقى أو التصوير أو أى فن من الفنون الجميلة .

والمهم أن تستطيع الوالدة أن تخلق لابنها جوا من الحرية والفرح يعيش فيه وألا تخشى عليه من الاختلاط بأعضاء الاسرة وأصدقائها من الفتيات كى لا يستحوذ على ذهنه خيال الجنس الآخر وكى يحس أن لا غرابة في ذلك

الجنس ولا جاذبية شهوية مفعمة بالأسرار وكل هذا مع اقتران الحرية بالرقابة اللينة الحازمة على تصرفات الصبي وأعماله

ومتى شب الصبي وترعرع فمن واجب الوالد - كما ترى مدام مونتيسوري - أن يصارحه بجوهر المسألة الجنسية فيبسط له حقائقها بسطا وافيا ويحذره من انتفاضها وتفاعلاتها وغدرها ويفهمه أن المرأة مخلوق رقيق وضعيف فيه فتنة للرجل وفيه متعة وخصب وحياة ، ولكنه ايضا مخلوق يجب أن يحترم لرقته وضعفه ، ولكي يحصل الرجل عليه ويستمتع به يجب أن يستحقه عن طريق العمل والكفاح وتأسيس المستقبل الزاهر يمهّد السبيل للزواج والحب المشروع

وكذلك ينبغي أن تفعل الوالدة بابتها فلا تسكت عنها المزايق الجنسية التي لا بد أن تنحدر بها اليها غوايات الشبان ، ولا ما قد يترتب عليها من عواقب حسية ومعنوية ذات أثر فعال في مستقبل الفتاة ومستقبل النوع .
والواجب أن تطلع الأم ابنتها على كل شيء ثم تطلق لها الحرية الفردية تلتطفها بالرقابة الحازمة الرشيدة أيضا .

أما المدارس - ولا سيما الثانوية والعالية منها - فمن المحتم - سواء للبنين أم للبنات - أن تنظم فيها الحصص الخاصة بمعالجة المشاكل الجنسية معالجة صريحة أساسها البحث العلمي المجرد كما هو الواقع اليوم في ألمانيا وأمريكا وقد طالعت في مقال أخير للدكتور (فوشيه) وهو من أنصار هذه الآراء ومن كبار تلاميذ العلامة الدكتور (هرشفيلد) في فرنسا أن المحاضرات العلمية المتعلقة بالشؤون الجنسية تلقى على الطلبة والطالبات في معظم الكليات والجامعات الألمانية وأن بعض المدارس الثانوية في ألمانيا وضعت في صلب برامجها مادة تنص على وجوب تلقى تلك الدروس .

وهذه النزعة لا غرض لها الا محاربة النفاق الجنسي وتقوية الارادة في
نفس الفرد وتحريره من عبوديته لأعمق غريزة فيه والسيطرة على هذه
الغريزة وتذليل قواها الخفية والتسامي بها الى ما يعود بالخير على الفرد
والمجموع .



رابندرانات تاغور

يمثل رابندرانات تاغور شخصية الفنان الكامل أبلغ تمثيل ، فهو شاعر وقصصى وموسيقى ورسام . وقد اشتهر في مصر كشاعر فقط ولكن شهرته كروائي مجدد عظيم أصبحت من الأمور المعترف بها في مختلف الأوساط الأدبية في أوربا وأمريكا

فتاغور قصصى كبير . ولكن ليس على النسق الأوربى ولا وفق الأساليب التى ابتدعها كتاب القصص فى الغرب وجرى عليها معظم أدباء العالم . إنه يكتب القصة كسواه . ولكن قصته تتفجر من ينبوع شعري يحمل طابعه الخاص ، ونغمته الفردية ، ووحية الهندى والانسانى المستقل .

والقصة التى يضعها تاغور تمتاز على الدوام بعنصر (الحلم) الذى يكاد يكون مفقوداً من القصص الغربية .

فالحلم هو القاعدة الموسيقية لقصصه ومبعث التخيل الشعري الذى يفيض علينا بشتى ألوان العواطف والشخصيات

وليس ثمة شك فى أننا نلح هذا العنصر فى روايات بعض كبار كتاب الروس كفيدور دوستوفسكى وإيفان ترجنيف وأنطون تشيخوف ولكن واحداً من هؤلاء لم يحاول أن يجعل من (الحلم) وحده مادة فنه وطريق إلهامه ودعامة قصته .

والحق أن الفن القصصى الروسى مزيج من الحلم والحقيقة . من الشعر

والواقع ، من السماء والأرض ، وهذا سر عظمته . غير أن القصصى الروسى حين يعتزم وضع قصة يفكر فى الحقيقة الواقعة قبل أن يفكر فى اطارها الشعرى وتبدوله الحياة عارية مجردة تتناوبها الأحلام والرؤى على اعتبارها جزءا متمما للحقيقة لا مبعث الحقيقة نفسها .

ومن ذلك كانت القصص الروسية برغم الشعر الذى تفيض به قصصا واقعية شديدة الارتباط بمظاهر الحياة العاطفية والفكرية من ميول عنيفة وغرائز مضطربة خفية ، وآراء ومبادئ وتأملات وفلسفات . فالروائى الروسى يرغب فى تصوير الحياة تصويرا مباشرا يضيف عليها حلة رائعة من الشعر والحلم

ولكن تاغور يريد قبل كل شئ أن يحلم وان يسترسل فى حلمه ويسبح فيه كشاعر متأمل ثم يدع صور الحياة واشكالها تنشق من تضاعيف ذلك الحلم وتخرج حاملة ضبابه وصفاء ورقته وخياله وشعره

فتاغور شاعر إذن . ورواياته أشبه بقصائد شعر منشور . أو أشبه بالسمفونيات الموسيقية محملا على اجنحتها وتحلق بك فى عالم كله نغم وطرب ولكن المعجزة التى حققها تاغور هى انه استطاع أن ينتهى من الحلم الى الواقع . وان يعثر فى مجاهل النفس البشرية على تلك العواطف الأبدية التى تتصل من تلقاء نفسها بالشعر والحلم وأن يستخدم فى التعبير عنها أسلوبه الذى يتفق وطبيعتها أى أسلوب الشعر والحلم

وهكذا هو يقرر الحقيقة بروحه وخياله بدل أن يسجلها ويحصرها بعقله وأكثر ما تتناول ريشته عواطف الرحمة والطيبة والصدقة والتضحية والحب وهذه العواطف شعرية بطبيعتها لذلك هو لا يقبل عليها بعقله كمعظم روائى الغرب ، لا يشرحها ولا يحللها ولا يتبسط فى استيضاح أجزائها بل

يدع أعمال أبطاله ترمز فقط إليها ، ويدعك تشعر بها حيه بابضة في قلوبهم يعيشون بها وحدها كأنما هي كل فضيلتهم وكأنما هم على هذه الأرض ملائكة أطهار .

هذه الطريقة الفنية تجعل من أبطال تاغور — في آن واحد — مخلوقات شعرية وإنسانية . وتجعل من قصصه كما أسلفنا قصائد نثرية مطولة أو سمفونيات موسيقية .

غير أن هناك ظاهرة أخرى ضاعفت إعجاب الغربيين بهذا الفن الروائي الطريف وهي إن العواطف الانسانية الشعرية التي نلسمها في جميع قصص تاغور يعرض لها الشاعر في رقة وعذوبة وشبه احترام وتمجيد وخوف كأنما هي شيء مقدس يخشى أن تدنسه يده — ثم يتسامى بها جهده حتى يصبح أبطالها انصاف آلهة تغريناً بالحياة وفق مثلها الأعلى

ومن هنا كان فن تاغور أروع الفنون (المثالية) في هذا العصر .
يعلمنا كيف نحب . وكيف نخلص . وكيف ننكر مصالحنا وذواتنا في سبيل أن نجرى ابتسامة سعيدة على ثغر انسان

هذه القوة في الحب هي طابع الشاعر . بل هي رسالة الهند إلى العالم بوجه خاص ورسالة شعوب الشرق بوجه عام

وقد يزعم البعض أن هذه القوة باطلة وخيالية وأنها علة انحطاط وسقوط هذا الشرق الحالم الوسنان ولكننا نقول أن قوة الحب كما يفهمها تاغور هي أيضاً قوة التضحية وأن قوة التضحية هي سبيل الحياة والحرية وأن لا حياة ولا حرية للأفراد والأمم بدون حب صحيح يستحيل عند الاقتضاء إلى تضحية كاملة .

ومما لا يقبل الريب أن الحياة الرحبة المكتملة الحرة لا تكتمل بقوى الحب

والتضحية . وانها في حاجة لقوى مادية مكملة أخرى ، كالعمل والابتاع والكفاح والاهتمام بشؤون البدن بحيث يرقى بنسبة الروح ويستطيع أن ينعم عن طريق المادة بحياة سعيدة موفورة الحاجات كما تنعم الروح في دائرتها المعنوية بقوى الحب والتضحية .

وهذا ما يريده تاغور للشرق . يريد الا ينصرف الشرقيون الى الحب ويهجروا العمل . يريد الا ينصرفوا الى الروح ويهجروا المادة . يريد الا يتشبثوا بحضاراتهم الشرقية الروحية ويتبرموا بالحضارة الغربية المادية . يريد ألا يتعلقوا بماضيهم العتيق وينكروا الحاضر بعلومه ومكتشفاته وصناعاته وفنونه . يريد أن يلحق الشرق بالغرب والغرب بالشرق وان يجعل من شتى الحضارات قوة ثقافية واحدة مشتركة يمكن ان ترضى مختلف مطالب الانسان ونزعاته في ظل الحب المتبادل المشترك وما يأمر به من حرية وعدالة ومساواة لجميع الأفراد والشعوب

معاً . وهذا هو الفارق بينه وبين غاندى

فالأول لا ينكر الجهود البشرية أيا كانت ولا ينفك ينظر الى الانسان كوحدة . ويجهد في أن ينتفع بكل حضارة وثقافة وكل أثر فكري أو روحى صدر عن الانسان .

والثانى أى غاندى يقتصر فى دعواه الثقافية على الروحانيات ويحاول أن ينتقص من الحضارة الغربية بدل أن يكملها وأن يستبدل بها حضارة روحية فطرية بدل أن يمزج بين الاثنين

وأنه ليخيل إلينا أن غاندى قد انساق الى ذلك بحكم زعامته . وأكبر الظن أنه لم يتجه بالهنود نحو الحضارة الغربية ولم يعترف صراحة بشمات جهودها خشية أن يثير عليه تقاليد الشعب الدينية الروحية أو خشية ألا يفهمه

سواد الشعب ومخافة أن ينعكس الغرض وتسرف الجماهير في فهمه وتأخذ بكلامه دون تمحيص فتقبل على أساليب العيش المادية وضروب الترف الأوربية بينها وقد اتخذت من مقاطعة هذا الترف الأجنبي سلاحاً وطنياً له وجعلت من فضائل الزهد والتقشف سبيل الاستقلال والحرية .

ولا ينبغي أن ندهش نحن لهذا . فالزعامة تكيف الزعيم وغاندى كان زعيماً وطنياً يخاطب الهند قبل كل شيء . ويعالج الجماهير الهندية وإن يكن في رسالته هو الآخر من الحب والاحتمال والصفح والتضحية ما يستضيء بنوره العالم ولكن هذه المهمة ليست مهمة تاغور . أنه شاعر . بل مفكر وأديب

وفيلسوف . تعدو نظراته أفق بلاده وتشمل الكون دفعة واحدة

أن تاغور يخاطب الانسانية قبل أن يخاطب الهند لأنه فنان . وغاندى

يخاطب الهند قبل أن يخاطب الانسانية لانه زعيم وطني

وليس معنى هذا أن تاغور ينكر الهند بلاده أو أنه أقل وطنية من زعيمها غاندى أو أقل من غاندى إحساساً بالآم شعبه وتعبيراً عن آماله وعبقريته وهل هناك خدمة وطنية يؤديها رجل لشعبه اسمي وأعظم من أن يحمل الى العالم باسم هذا الشعب رسالة روحية مادية كاملة تدعو لخير هذا العالم ؟ لقد كان الوزير الألماني شترزمان يقول : « كنت كلما طالعت أعمال ذلك الهندي العبقري ازدادت إيماناً بنجاحنا النهائي في وضع قضية السلام العالمى على أسس ثابتة وعادلة »

فاذا كان يمكن لأعمال تاغور أن تحدث مثل هذا التأثير في قلوب ساسة من طراز شترزمان وعقولهم فقد أدى تاغور واجبه وخدم الهند بخدمته أوربا والعالم

وانى لا تسأل متى كان معنى الوطنية ان أخدم وطني في حدوده فحسب ؛ والا احاول ان اجعل من هذا الوطن رائد العالم نحو حياة خصبة جديدة

وانى لم اسهب فى الكلام عن هذه الناحية من عبقرية تاغور إلا لأن
نقرا من الكتاب فى مصر اهتموا الرجل بضعف الوطنية كأن الانسانى تنفى
الوطنية وكأن على كل فرد من افراد الأمم المستعبدة ان يشغل نفسه بمصير
قومه فقط وان يكون من العجز بحيث لا يستطيع ان يصل — فى الغاية
الأبدية الكبرى — بين أمته وغيرها من شعوب الارض

الا ان هذه الظاهرة لهى الدليل الساطع لا على وطنية تاغور الرحبة
السامية فقط بل على قوى الحيوية العظيمة المدخرة فى صدور أبناء جنسه
أيضا والتي تسمح لهم — وهم فى صميم نضالهم السياسى — بالتفكير فى مصيرهم
وفى مصير الغير على السواء

بل انه ليلوح لى ان توفر هذه الفضيلة المزدوجة فى الشعب الهندى قد
جعلته يحتكر العظمة الروحية لنفسه اذما من شعب أوربى استطاع وهو فى
مستهل حركة وطنية ان ينتج عبقرىا انسانيا كتاغور وأن يهتم باذاعة رسالة
إنسانية وهو يكافح ليتحرر ويعيش .

ثم أليست الجهود التى يقوم بها تاغور فى طوافه حول العالم ودعوته الى
الوئام والسلام وتعريفه الأمم بفلسفة الهنود وشعر الهنود وثقافة الهنود
خير دعاية للهند وأكبر مساعد لها فى كسب عطف الشعوب على قضيتها
الوطنية ؟

ان اسم تاغور لا يكاد يتردد فى بلد حتى يذكر اسم الهند وتذكر قضيتها
المقدسة وجهادها المطرد المبتكر العجيب فى سبيل استرداد حريتها واستقلالها .
والواقع ان الرأى العام الدولى يفهم الشاعر الداعية أو الأديب أو
الفنان أكثر مما يفهم السياسى

إذ الشاعر يخاطب عواطف الناس جميعا أما السياسى فلن يحسن غير
مخاطبة أشباهه

والشاعر أو الكاتب الداعية ان كان عظيما استطاع أن يقنع الجماهير
بضرورة السعى لتحرير بلاده لا لمصلحتها وحدها بل لمصلحة العالم .

وهذا ما يفعله تاغور . فهو يكشف للغرب عن عبقرية بلاده وعن
الكنوز المودعة في ثقافتها والتي لا يمكن أن يستخرجها أبناؤها ويضيفوا
الجديد عليها وينفعوا بها الناس الامتى تحرروا

فكأنه يدافع عن الهند لا لتنعيم بحريتها في افق ضيق محدود بل لتتمكن
بواسطة هذه الحرية من انعاش ملكاتها الدفينة الخالقة والمساهمة بنصيبها
الطريف في الجهود العلمية والثقافية المشتركة التي تتألف منها الحضارة
العصرية ومن لنا نحن برجل كـتاغور يحوب اطراف القارتين داعيا لعبقريتنا
شاديا بماضيها ، شارحا فضائل عنصرنا ، معرفا الناس بجهودنا مبينا ما غمض
من شخصيتنا ، رافعا اسم هذه البلاد في كل عاصمة وكل قرية ، معبرا عن إرادة
مصر التي حضرت العالم ، في الحياة والعمل حرة مستقلة لخير نفسها وخير
العالم ...

نحن مجهولون من الامم المتمدنية . بل نحن ضحايا الدعايات الزائفة
والخيالات الكاذبة ، والمعلومات الطائشة ، لا يعرفنا أحد . ويكاد لا يهتم بنا اليوم
أحد ومن واجبنا أن نندمج ما استطعنا في الأسرة الانسانية المتحضرة ، وأن
ننظم الدعاية السياسية والدعاية الادبية الثقافية وأن نقرن بين الاثنين بحيث
يتمشيان معاً ويكشفان للرأى العام الدولي عن حقيقة جهادنا الوطني وجهادنا
الثقافي .

وليس هو الشاعر أو الكاتب أو الفنان الذي يعوزنا للقيام بحركة
الدعاية الفكرية.

ان في مصر ادباء نوابغ اقذاذ يحسنون لغة أو عدة لغات أوربية . ولهم

ثقافة شرقية وغربية واسعة شاملة . فلماذا لا تنتفع الأمة بهم . ولماذا لا تفكر هيئاتنا في انتخاب فرد منهم أو عدة أفراد تزودهم بالمال اللازم وترسلهم للدعاية الثقافية في مختلف البلدان يعملون بجوار الذين عهد اليهم بالدعاية السياسية ويؤيدونهم ويكملون جهودهم ويمثلون الناحية المعنوية الانسانية من شخصية مصر الناهضة ؟ . . .

الحق أننا مقصرون في هذا الميدان تقصيراً لا نعذر عليه / ومادمننا نعيش على هامش الحياة فالحياة لن تحفل بنا / وأول واجباتنا أن تسلكم . بل ان نصرخ ملء صدورنا بحيث لا تسمع صرخاتنا في مصر وحدها بل تتردد وتتجاوب اصداؤها في شتى انحاء العالم !

جالت بذهني هذه الخواطر وأنا أطلع مجموعتين من قصص تاغور نقلهما إلى العربية الاستاذ عبداللطيف النشار .

وقد اطلق على المجموعة الاولى هذا العنوان « وكيل البريد وقصص أخرى » وعلى المجموعة الثانية « خالتي وقصص أخرى » . وهى قصص صغيرة تقوم على تلك العواطف الشعرية المتأصلة في النفس البشرية والتي يبدع تاغور في رسمها كما أشرنا .

وقد وضعها الاستاذ النشار في اسلوب عربي سهل رقيق متين شعرت انه يتفق تمام الاتفاق وروح المؤلف واسلوبه وان كنت لم اتمكن من مقارنة القصص بالاصل الذى نقلت عنه .

وما راعنى في هاتين المجموعتين بوجه خاص قصة (وكيل البريد) وهى مأساة رجل صادفه الحب الصادق والاخلاص الصحيح الذى قد لا يعترض الانسان في حياته غير مرة . صادفه ممثلاً في شخص فتاة ساذجة بريئة طاهرة

فلم يفهمه حق الفهم ولم يقدر الفتاة حق التقدير ، بل اعرض عنها ولم يأبه لها
وبعد أن هجرها وانصرف أحس بقيمة قلبها العظيم فندم وهم بالرجوع اليها
ولكن الباخرة كانت قد اقلعت به والوقت قد فات ...

وهكذا كانت السعادة قاب قوسين منه فتركها تفلت من يده وجعل
يلتمس لحماقته الاعذار ...

هذه القصة العادية تؤثر في قارئها ابلغ تأثير واجفعه فقد كتبها تاغور كما
كتب القصص الاخرى بأسلوبه الصافي البسيط الذي يقدر العواطف
الرفيعة ويلبسها لمسا خفيفا ويرمز اليها من بعيد دون ان يحللها ويفضحها .
ونحن نشكر للاستاذ النشار هذه الخدمة الأديبة الخالصة ونوجه انظار
الجمهور إلى اقاويص تاغور التي لا تعلمنا كيف نحيا فحسب بل تعلم ادباءنا
كيف تكتب القصص الصغيرة الخالدة !

أنا تول فرانس

من الظواهر المألوفة فى أوربا أن العظم لا يكاد يموت حتى يسرع الباحثون الى مراجعة أعماله ونقدها النقد الصارم المر وتحديدھا تحديدا نزيها لا تقف فى سبيله اعتبارات الصداقة أو المصلحة أو الخوف التى كانت تغل عقول النقاد أيام كان العظم حيا واسع النفوذ مرهوب الجانب يحيط به الأنصار والمتملقون يذودون عنه وعن أعماله ابتغاء العيش فى كنفه والظهور على حسابه واستجداء بعض ما يفيض عليه من شهرة ومجد وهذا ما وقع لأنا تول فرانس

فهو لم يكذب يودع هذا العالم حتى خرج كتاب الشباب من صممتهم ومدوا مخالبهم وتألّبوا على جثته كما تتألّب كواسر الطير على الفريسة العاجزة . وما زالوا به نقدا وطعنا وتجريحا حتى أحالوه الى هيكل عظمى نخر .

هم فريق من الأدباء الفرنسيين المجددين أطلقوا على أنفسهم اسم الـ Surréalistes أى أنصار ما وراء الحقيقة . وليس موضوع هذا المقال التحدث الى القارىء عن مذهبهم واختلاف نظرتهم الى الأدب عن نظرة أنا تول فرانس وغيره بل موضوعنا الأسباب التى من أجلها يصدر اليوم معظم كتاب الشباب فى فرنسا وعلى رأسهم هذه الجماعة حكما قاسيا على مخلفات أنا تول فرانس الأدبية ومكانته من الأدب العالمى .

فلننظر في دعواهم اذن ولنسأول الرجل بنظرة فاحصة . ماذا نرى ؟ ومن هو أنا تول فرانس في عرفهم ؟ وكيف يبدو لهم ؟ هو رجل عابث مستهتر يؤثر الاستمتاع بالحياة استمتاعا مجردا على التألم لحظة في سبيل ادراكها الادراك الشامل الصحيح

تستوقفه فكرة غريبة أو زهرة جميلة أو غادة فاتنة أو نكتة مستملحة فيهلل ويعجب ويقنع من الوجود بسحره الظاهري دون أن يكلف نفسه عناء النفاذ الى الجوهر والاهتداء إلى حقيقة خفية جديدة .

وماذا يهمه من أمر العالم والسعى لا كتناسره والتماس الحلول لمشاكله والأخذ بيد الانسانية نحو مثل طريف أعلى .

لقد هبط بالدنيا كما يهبط الجواب بالبلد الغريب ، يتمتع الطرف بمحاسنه ويحاول بعض الشيء التعرف إلى أخلاقه وعاداته ، ثم يتزود منه بنظرة قبل الرحيل ، إذ بلاد الله واسعة ، والعالم جم المشاهد وافر اللذات ، والحقيقة موزعة ههنا وهناك ولا سبيل الى وحدة الفكر أبدا .

إن شخصية أنا تول في زعمهم قوية للغاية وضعيفة الى أبعد حد ، ذات حافظة متنبهة وذكاء متقدوا حساس عميق بالجمال المادى ، جمال الأوضاع والاشكال والأساليب . ولكنها ضيقة الخيال جافة العاطفة لا تعرف وثبات الوجدان الجامع ولا طفرات الغريزة الملتبهة الخالصة .

لذلك هو يفهم كل شيء بعقله ولكنه لا يستطيع أن يخاق شيئا بخياله وعاطفته .

لقد طالع الكتب جميعا فاستظهر الآراء والنظريات جميعا . وساعده احساسه بالجمال فظمها ونسقتها في أحسن اسلوب واسطع عبارة فكان ناقلا ماهراً ومرددا فذا لخواطر الآخرين

ولو انه كان عبقر يا صحيحا لا غنى بلك الافكار وأضافها إلى مادته الخاصة وابتدع منها لنفسه والعالم أديا جديدا أو فكرة مستحدثة أو حلما من احلام الاصلاح والتطور التي لا ينفك الناس يطالبون بها ويقدمون العظماء من أجلها ويتبعونهم مستشهدين باسمين .

ولكن أنا تول كانت تنقصه حرارة العاطفة وخصوصة التخيل وبعد التصور واتساع مدى الحب الانساني .

وانى له أن يحب سواه وهو لا يتألم بل ينصب نفسه عدوا للألم ناقما على المتألمين يسميهم مرضى لانه لا يفهمهم !

ولو انك حملت تاريخ حياته لماظفرت بأزمة نفسانية واحدة كتلك الازمات الكبيرة التي تحتاج حياة العظماء فتكشف لهم عن دخيلة نفوسهم وتقربهم من نفوس الآخرين وترغمهم على التطلع الى الآفاق المترامية ، آفاق ما وراء الواقع وما وراء الألم وما وراء الحياة والموت .

لقد اذهلت المعارك الفكرية عقل أنا تول فشغل بها عن معارك الحياة كان ولو عا بالآدب القديم ، وتقاليده المتوارثة ، وطابعه المتزن واتساقه ومنطقه ونصوعه . فأثر العيش في الماضي وفضل أن يحذو حذو السلف الصالح على أن يضيف الى ميراث العقل البشرى خلاصة روحه وصفوة آماله وأمانيه . استهواه عبث (رابليه) وتشكك (مونتاني) وتهكم (فولتير) وسحر (رينان) وصفاء فلاسفة الاغريق وأدبائهم فامعن في قراءتهم وتلمذ عليهم وطاوعهم واستسلم لهم فافلتت منه الحياة الكبرى وضاعت في غمرات هذه الافكار . واصبح الرجل مزيجا من هؤلاء . يرى بعيونهم ويفكر بعقولهم ويحس بوجود اناتهم فقامت بينه وبين مظاهر الكون حجب من آرائهم الخاصة وطرأ عليهم في البحث والتفكير

ولقد ذكرنا أن العاطفة الخالقة كانت فاترة في صدر أنا تول فهو اذن لفتور عاطفته وعدم استطاعته الاتصال عن طريقها بالناس والعالم آثار الانصراف الى التفكير ودراسة الناس والعالم بواسطة الكتب

ولكن النفس البشرية هي التي تهدي صاحبها الى الحقيقة العامة ، أو الى شبه الحقيقة العامة ، أو الى حقيقته المستقلة التي يحارل ان يجعل منها حقيقة صالحة عامة

اما الكتب فسلسلة من أطيايف الحقائق الغريبة الدخيلة التي لا آخر لها . هي صحراء لا تقع العين منها إلا على سراب الحقيقة وسراب الجمال وأنا تول اهتم بالكتب وأهمل نفسه . اهتم بالثقافة وأهمل الانتاج الشخصي العميق . لاذ بحيالات سواه وآراء سواه ، وجعل من ذهنه مسرحا لخواطر الغير ومعرضا لفنون الأجيال الغابرة وآدابها

وتولد فيه من جراء الغلو في المطالعة . والغلو في التشقّف . والغلو في استعراض آراء مفكرى الانسانية ضرب من العبث بالأفكار والتشكك فيها والسخرية منها جميعا

شاهد مذهب الأول ينقص عقيدة الثانى ، وفكره هذا يهدم مبدأ ذاك ، فخيّل اليه أن العقل البشرى خدعة كبيرة . وان مجهوداته المتعاقبة ليست سوى رياضة عقلية مسلية ، وانه أداة لهو ارسقراطى ووسيلة عظيمة من وسائل اللذة والاستمتاع

واباغ دليل على هذا تلك المأدبة الشهيذة التي رسمها فى قصة (تايس) فقد اجتمع الفلاسفة حول المائدة واخذوا يتطارحون النظريات . كل يتصعب لرأيه ويجهل فى الذود عنه غير حافل بالوصول الى الحقيقة قدر ماهو مأخوذ بلذة الجدل العقلى

فالفكر يبدو لائناً تول كمثار للجدل فقط ، والمفكر انسان خاضع لاهوائه وميوله ، والحقيقة الفردة الخالصة لا وجود لها ، وكل حقيقة تحمل الشك والتأويل وتقبل الهدم من اساسها . بل ان عمل المفكر هو في هدم الآراء ما استطاع ، والارتياح الدائم في صحتها ، لا لآلال حقيقة الخاصة محلها بل لاقرار بطلان الفكر البشرى وعجزه عن حصر شتى النظريات فى اية حقيقة جوهرية واحدة ..

تلك هى نزعة اناتول فرانس المتمثلة فى كتابه (آراء جيروم كوانيار) والتى انتهت به الى مهاجمة كل شىء : الاخلاق والدين والقضاء والتشريع والوطنية والمحبة والاخاء العالمى .

لم تثبت أية فضيلة تحت لفحات نقده الحار .
لم يستقم أى نظام حىال تهكمه المر ولم يحترم أى مجهود بذلته البشرية بالدموع والدماء

هزأ بكل شىء وكان أشبه بشيطان عليم بكل ما فى العقل الانسانى من نقص طلع على الناس بغتة واستوى على جمجمة البشرية وجعل يرقص ويقهقه ويهذى ثم جن جنونه فسحقها بقدميه الغليظتين سحقاً !

انه فوضوى ، لفرط ما عالج الأفكار انكر الفكر ولفرط ما أرشدته الافكار الى مواطن الضعف فى النفس الانسانية انكر النفس ويئس من اصلاحها وعثا تحاول البحث عن اسرار هذه النفس وتطوراتها فى قصة من قصصه فهو لا يؤمن بوجودها وهو يرد الاحساسات والانفعالات الى أصل ظاهرى واحد ، الى غريزة البقاء وشهوة الجنس التى تلازمها . اما المنازع السامية كالقدرة على الالم والقدرة على التضحية والقدرة على البطولة ومحاولة الفرد التخلص من الخيرة المتأصلة فيه تجاه لغز الكون بتطلعه الى ادراك قيمة

الوجود و سر الخالق ومعنى الموت ، فاشياء قد يعترف أناتول بوقوعها ولكن لا يدين بها . هي مظاهر قوة وهو لا يهوى غير مظاهر الضعف ، لذلك يستبعد ما من قصصه فتخرج ابطاله شوهاة ناقصة فاترة ، اجساما بلا ارواح

وحينما يروقه رسم بعض هذه المنازع السامية يسرع عقله الساخر فيسمم نيايحها

ان الراهب الذى احتمل فى سبيل ايمانه شر صنوف الآلام لا يلبث أن يخلو (بتاييس) حتى تستيقظ فيه الشهوة فينسى ربه . وتاييس التى آمنت على يد هذا الراهب لم تؤمن ولم تودع الترف والدعارة وترضى عذاب السير حافية فى الصحراء الا لأن الراهب كان ذا وجه جميل

وقد تكون هذه حقائق ولكن عيب أناتول أنه لا يرى فى العالم غيرها . لا يرى غير هذه الحقائق القائمة على الغرض والتضحية الكاذبة الصادرة عن اللذة والمصاحبة . اما التضحية البريئة واما البطولة الخالصة النزيهة فلا اثر منها فى اعماله .

والفلسفة التى تلجها فى تواليف أناتول - ان كان له شمة فلسفة - هى أبسط الفلسفات وأقربها إلى العقل العادى . فهو يقول ان الفرد عبد ميوله وشهواته ولا سبيل له الى التحرر منها ، وان اهواه تتحكم فى عقله وتفسد صحته تفكيره ، وان غرائزه لا تنفك تنزل به إلى حضيض الحيوانية ، وان عزاءه وخلاصه انما يكونان فى الفن ، وفى الفن وحده .

فالفن أو الجمال هو الذى يصقل تفاعلات الغريزة ويهذب من وسائل اللذة الحسية . والبحث عن الجمال واللذة الحسية يجب أن يكون غاية الفرد المثلئ يسعى اليها ولو على انقراض الأخلاق وانقراض كل نظام اجتماعى . ولكن الاغليات الساحقة لا تقدر الجمال ، والفن عزيز المنال صعب

عليها فهمه ، واللذة الحسية تخيفها بحكم الاوضاع الاجتماعية والعقائد الدينية والعرف الشائع ، لذلك يكره أناتول الاغليات ويحمل على الديموقراطية ويزدرى سواد الناس ويتعالى عليهم ويسخر من جهلهم وسخفهم ويهزأ بجهودهم العملية اليومية البعيدة عن روح المنطق ، الحذرة الوجلة أمام اللذة ، الناضرة الى الجمال والفن كعناصر كالية دخيلة .

وهذا الشموخ المتهكم المشوب بكمراهية دفينه يولد فيه ضربا من القسوة على الآخرين ، قسوة نافرة مستوحشة تجفف وجدانه وتخدم فيه الشعور بالرحمة وتبتليه بالغلظة والاثرة والجمود .

لقد قال في عرض مقال له كلمة تميظ اللثام عن حقيقة شخصيته وهي :
« ان أعمال الانسان غير جديرة الا بعاملين السخرية أو الشفقة »

واكن السخرية تنفي الشفقة ، ومن يسخر من سخف الناس وجهلهم يسخر أيضاً من مصائبهم وآلامهم فلا يعتقد صدقها ولا يستطيع بالتالى ان يرحمهم .

الرحمة ! الرحمة الواسعة ، ذلك السكنز الالهى الرائع الذى يستمد منه العبقري غذاءه ويستلهمه فنه ويفهم بواسطته الغير هو الذى كانت تفتقر اليه روح أناتول فرانس .

لقد عاش فى الماضى ولم يحب الانسانية قط بل أحب نفسه فانعدمت الصلة بين فنه وبين الحياة !



بمثل هذه الصرامة يحكم معظم كتاب الشباب فى فرنسا اليوم على من كان بالأمس السيد والزعيم وقد يكون فى حكمهم كثير من المغالاة ولكننا حاولنا أن نبسط صفوة

آرائهم ليعلم المصريون ان الاحترام الواجب لذكري العظماء لا يقعد بالفكر
الاوربي عن فحص أعمالهم فحصا دقيقا وتحديد مركزها تحديدا صارما وان
استحالت شخصية العظيم بعد ذلك الى شخصية انسان عادى
انهم يضحون بذكري عظمائهم فى سبيل الحقيقة
وهذا هو الاخلاص الصحيح للفكر وهو طريق التطور والتجديد فى
الآداب والعلوم والفنون .



فلسفة وتحليل

من ظواهر العقل العربي انه مغرم بالحكمة ، ولوع بالافكار الثابتة العامة ، تجري الحياة عليه تجاربها فيمعن النظر فيها ثم يبرزها على أيدي كتابه وشعرائه سلسلة من المواعظ والارشادات والحكم في آيات شعرية قصيرة أو كلم جامعة .

فهو يحس الحياة ويفهمها ، ولكنه بدل أن يرسم كل جزء منها رسماً دقيقاً شاملاً ، يختصر الطريق فيعبر عنها تعبيراً اجماعياً فلسفياً .

فأنت تقرأ قصيدة لشاعر عربي فلا تحس انه قد تخير عاطفة من العواطف الانسانية وأرصد جهده على وصف أطوارها ومنازعها وصفاً أميناً يشمل الأجزاء والتفاصيل بل تراه يسبح في اجواء شعرية مختلفة ويقفز من احساس الى آخر وهو في تنقله المطرد بين الميول والاهواء يصعب عليه متابعة عاطفة معينة وتأديتها التأدية العميقة الوافية .

وبما انه يعجز عن رسم العاطفة رسماً كاملاً دقيقاً ، فهو يكتفي باشعارك بالنتيجة الفلسفية العملية التي أحدثتها في نفسه تلك العاطفة ، وهذه النتيجة تتمثل في البيت الجامع أو البيتين أو الثلاثة بالنسبة للشاعر وفي الحكم والكلم الجامعة بالنسبة للناثر . وهذا هو الفارق بين أدبنا والأدب الأوربي فنحن نختصر العواطف ونبسطها ونحيلها كتلاً جامدة من الآراء العامة والقواعد الاخلاقية الثابتة . وهم يدرسونها درساً مستفيضاً ويرسمونها رسماً

كاملا حيا بحيث يستطيع القارئ الهبوط إلى أبعد أغوارها ، والوقوف على أخفى دقائقها ، والاحساس بجوهر طبيعته ممثلا فيها . فنزعة الادب الشرقى فلسفية ونزعة الادب الاوروبى تحليلية .

ولكن الفلسفة رجعت صدى الحياة وخلاصة تجاربها أما التحليل فالحياة نفسها . ونحن أحوج مانكون لتغذية أدبنا بروح التحليل لنصل بينه وبين الحياة الشاملة .

وليست العبرة فى أن نستخرج من العاطفة حكمة فلسفية بل العبرة فى أن نصورها تصويرا تحليليا صارما يضىء مجاهلها القصية ويكشف لنا اللثام عن حقيقة شخصيتنا .

وهكذا نفهم انفسنا ، ونعرف كيف تتحرك ديولنا وغرائزنا ، ونستطيع أن نحكم العقل فى تصرفاتنا ونسمو الى قمة الفكر والفلسفة عن طريق معرفة الحياة

فالآراء والمبادئ والحكم والمواظ ينبغى أن نستخلصها من تحليل العواطف ودراسة الحياة لأن نصطنعها اصطناعا ونحن لا ندرى أرقامه هى على الحقيقة أم منبعثة من خيالات الشعراء والكتاب .

وأنا أرى أن تجديد الادب عندنا ليس فى أن نغلب النزعة التحليلية الواقعية على النزعة الفلسفية الخيالية بل فى أن نوفق بين النزعتين فنحتفظ بشخصيتنا وتصل فى الوقت نفسه بحقائق الحياة

إن تقليد الادب العربى عبودية وتقليد الادب الاوروبى عبودية أيضاً . والاستقلال الصحيح فى الإنتاج والخلق هو أن نبتدع ادبا شرقيا وانسانيا . ولكن هذه الانسانية فى الادب لن نظفر بها إلا اذا تعلمنا أساليب التحليل العميق والرسم الصادق الحى على أيدي كبار كتاب أوروبا . وتلك هى فائدة الثقافة .

النقد في مصر

يقول الناقد الألماني الفريد كير « كل نهضة في الادب اذا لم ترافقها نهضة في النقد تباطأت في سيرها وجمدت في طريقها ودبت فيها عناصر الاضطراب والفوضى واستحال على الجمهور أن يشعر بها شعورا قويا فعلا يؤثر في عقليته وثقافته ونظراته إلى الحياة .

والاديب بلاناقد كالغريزة بلا عقل تنطلق في اعصار الميول والاهواء لا ضابط لها يكبح جماحها ويكسر من شرتها ويهديها سواء السبيل فكلما أحكمنا الصلة بين الاديب والناقد قربنا مسافة الخلف بين غريزة الاول وعقل الثاني واستخلصنا من هذا المزاج قوة متزنة تسلك بالادب طريقا رحبا معبدا خصبا »
هذا ما يقوله كبير نقدة الالمان وما نرغب في تطبيقه على الحركة الادبية في مصر .

فهل في مصر اليوم نقد صحيح يسير حركة الانتاج الادبي وينشطها ويحفزها ويسهر على تقدمها وارتقائها ويفحصها في ضوء العقل المتزن ويسترشد في حكمه عليها بفضائل الامانة والنزاهة والحرية والاخلاص ؟
الحقيقة التي لا شك فيها ان ليس في وسع الباحث المنصف انكار النهضة الادبية في هذا البلد وآثارها والجهود التي تمخضت عنها . ولكن الحقيقة أيضا ان هذه النهضة توشك أن تصبح مهددة بالشلل والجمود والموت

لافتقارها إلى تلك القوة الناقدة الضابطة التي تأخذ بيدها وتهزها من سباتها وتنعش منها الخصائص الراقدة وتصب فيها دم الحياة والتطور والواقع ان لانقد في مصر اليوم . وتلك حال يؤسف لها وظاهرة خطيرة تجب المصارحة بها وإلا اختلطت البقية الباقية من القيم الادبية وانحطت اقدار النوابع المجاهدين وانكرت اعمالهم ودب روح اليأس في نفوس الشباب ورجعت الحركة الفكرية القهقرى

ومما يلاحظ في مصر الآن أن العناية بالنقد تكاد تكون معدومة الاثر فكتابتنا ينتجون المقالات الاجتماعية والابحاث الادبية والشعر والقصص ولكنهم لا يهتمون بنقد اعمالهم بعضهم لبعض نقدا بريئا نزيها خلوا من الغرض . وانت قد تطالع جميع الكتب الادبية التي أخرجتها المطابع المصرية في هذه السنوات الاخيرة فلا تجد بينها كتابا واحدا عرض فيه صاحبه لنقد أعمال طائفة من الادباء المعاصرين وتخصص لهذا النقد وانقطع له وابتدع أو اقتبس ونظم مقاييس أدبية تضع حدا للفوضى الحاضرة وتوجه بالأدب وجهة جديدة وتقرر مراكز الأدباء وتعترف بجهود الناشئين منهم وتعطى لكل ذي حق حقه

نشأ من هذا النقص أى من فقدان معظم الكتاب روح الاخلاص والزاهة وعدم وجود نقدة اخصائيين تكسبهم حريتهم وامانتهم ضربا من الاحترام والسلطان وقوة في الفصل والتحديد ، ان أضحى النقد في مصر إما تقرىظ على طول الخط وإما تحامل وتنقص على طول الخط أيضا ، فكل اديب يحامل الآخر وكل صغير ناشئ يمدح الكبير المشهور ليظهر ويصل ، وكل كبير ماجد ينصب حول نفسه سرادقا مقدسا لا يدخله غير المتزلف الخفير ، والعاجز المنكوب ، والحوارى البائس المؤمن به ، المقر بعظمته ، الشادى بفضلته من دون أدباء للعالم .

وترى هذا الاديب الشهير الماجد على ما أصابه من شهرة ومجد يخشى النقد كعفريت أسود ويستخدم لحنقه مكائنه ونفوذه والحواريين الذين جمعهم للدعاية والزلفى وللسمر والمنادمة وقتل الوقت

فمعظم كبار الأدباء في مصر لا يطبقون النقد ولا يسلمون به والغالبية منهم بما تملك من وسائل النشر والاعلان تبذل جهد الطاقة لعرقلة كل حركة من حركات النقد لا يقصد بها اطراؤهم ومحاربة خصومهم وإقامة العقبات في سبيل إظهار شخصيات أدبية جديدة قد تنزلهم عن عروشهم وقد تحتل في الغد القريب تلك العروش !

وهناك ظاهرة أخرى أشد خطورة مما تقدم على نهضة الفكر والنقد عندنا ، وهذه الظاهرة تمس أسلوب النقد نفسه والطريقة التي يعالج بها أشباه النقدة العمل الأدبي المطروح بين أيديهم .

هؤلاء الناس يتناولون الكتاب الجديد في نظرة تعسفية جائرة يريدون تطبيق نظرياتهم الخاصة وأفكارهم الخاصة ومذاهبهم الادبية الخاصة على صاحبه ، فان وجدوا في الكتاب ما يتلاءم وتلك النظريات والمذاهب امتدحوه واعترفوا به وإلا فالاستهتار والتنقص والتحامل نصيب مؤلفه التعس المنكود .

هذا الفريق من أشباه النقدة لا يفهم أن أول شروط النقد الاعتراف بشخصية المنقود والتسليم بان هذه الشخصية لابد أن تختلف عن شخصية الناقد وان لها افكارها ومنازعها وطريقتها الخاصة في الانتاج والخلق وان لابد للناقد كي يتعرف أسرارها ويستبطن دوائها ويكشف عن القوى الجديدة التي تميزها ، أن يتضع حيالها وينضوى تحتها ويقبلها على علاقتها حتى يفهمها ويستطيع في النهاية أن يدل على مظهر التقليد أو التجديد فيها وناحية القوة أو الضعف منها

أما محاولة تطبيق شخصية الناقد وآرائه على شخصية المؤلف وعمله فاستعباد للمؤلف وقتل لشخصيته ومحو لخصائصها وإغفال لجوهرها وانكار للفضائل التي تتميز بها والتي من أجل تحقيقها وإبرازها وضع المؤلف كتابه وفكر وتألم وجاهد واحتمل

فالناقد عند شروعه في النقد . يجب أن يتحرر من ميوله وأهوائه والا ظلم المنقود وغمطه حقّه . والشائع عندنا أن أنصار القديم اذا تصدروا للنقد تحكمت فيهم عقائدهم وثقافتهم القديمة فقاوسوا بها وحدها العمل الأدبي وتوهموا أنها وحدها الميزان السليم

ومعظم أنصار الجديد اذا تصدروا للنقد غلبت عليهم عاطفة التمرد على كل قديم واهتدوا في الحكم على العمل الأدبي بما اعتنقوه من افكار ومبادئ حديثة معينة . وهكذا تغيب شخصية المنقود في ميول وأهواء ناقيه فيستحيل على القراء أو يصعب عليهم أن يدركوا طابع تلك الشخصية المستقل وما تفردت به وما تحمل من تيارات جديدة للحركة الفكرية والادبية ومن الأدلة البالغة على فوضى النقد في مصر ان من الادباء أو أدعياء الادب من يسمح لنفسه بنقد كتاب لا يدري عن موضوعه شيئاً . ولم تكن له بهذا الموضوع سابقة خبرة ومعرفة طويلة تؤهله للاضطلاع باعباء مهمة النقد الشاقة وتمكنه من الوقوف موقف الحكماء المدرب المنصف النزيه

والأعجب من هذا أن بعض الصحف والمجلات تفتح صدرها لأمثال أولئك الادعياء وتنشر لهم مقالاتهم وتشفعها بمختلف الألقاب وتدعم بهذه الوسيلة يتحكمون في أقدار العاملين ويتصرفون في عقولهم ويقلبون القيم الأدبية وينفثون في القراء سم الغرض وفي الكتاب سم اليأس ويجهزون لاعلى حركة النقد فقط بل على حركة الانتاج أيضاً أى على الفكر والنهضة القومية معاً .

وهناك فوق ما تقدم ظاهرة أخرى تفشت كالوباء بين بعض كتابنا وتأصلت فيهم واستحوذت على عقولهم وباتت كالعقيدة الراسخة لا يقبلون فيها الشك أو الجدل ولا يتحولون عنها مهما قدمت لهم من براهين .

وهذه الظاهرة هي احتقار كل عمل مصرى لأنه مصرى . واحتقار كل عمل شرقى لأنه شرقى . واعتقاد أن ليس في مقدور أى كاتب أو فنان مصرى أو شرقى أن يبدع عملاً أدبياً أو فنيا يضارع ولو من بعض وجوه أعمال كبار أدباء وفنانى الغرب .

هؤلاء الكتاب عندما يقدمون على نقد مؤلف لأديب شرقى ينظرون اليه من حائق نظرة الزرارية والاستخفاف وقيسون عقله بمقياس بيئته المتأخرة ويجهدون فى تبسيط مواهب هذا العقل والتشكك فيها والخط من شأنها كأن الطبيعة لا يمكن أن تخلق فى الشرق وفى ظروفه الراهنة عبقرىا وكأننا لم نألف من العبقرى أن يتفوق على وسطه وان يجاوز حدوده وان يتقدم عصره باجيال .

والمدحش ان هذه الطائفة من النقاد على صرامتها وتعصبها كثيراً ما تكون جاهلة بالادب الصحيح ، عاجزة عن فهمه وتقديره فتلجأ الى الزرارية والانتقاص مداراة لجهلها وعجزها وحبا بأشعار نفسها انها على حظ وافر من احترام الثقافة العالية والرغبة فى خدمة الادب الرفيع . . .

ولا يسعنا ونحن فى معرض الحديث عن أمراض النقد فى مصر ان نهمل شأن المجلات التى هى موطن الثقافة فعظمها مسئول عن انحطاط حركة النقد بما ينشره عن الكتب الحديثة من فقرات هى بمثابة الاعلان تدخل فيها كل ضروب الثناء والمبالغة والتهويل والتهويز ما خلا النقد وأنا لا اعرف فى مصر غير مجلة واحدة هى (المقطف) تغنى احياناً بالنقد النزيه

فتفرد له عدة صفحات منها ولا تخشى عندئذ في الصراحة والحق والامانة
للفكر لومة لائم .

أما الصحف فقادير الأغلبية منها في أيدي مشاهير الكتاب ومعظمهم
كما ذكرنا يقاوم النقد النزيه دفاعا عن نفسه واحتفاظا بمجده وتمكينا لشهرته
وخوفا من زحف طلائع الجيل الجديد

تجاه هذه الحال المنكرة يحاول النقد ان يستوى على قدميه وان يشعر
بكيانه المستقل وان يؤدى رسالته . ولكن ربح الفوضى تعصف به من كل
صوب وتوشك ان ترديه صريعا وتردى الفكر معه !

ومن الظواهر الملحوظة في النهضة الأدبية عندنا أن الهوة سحيقة بين
الكتاب المجددين وبين الشعب . انهم يتوافرون على دراسة الأدب الاجنبى
ويبدلون جهد الطاقة في ملاحقة تطورات الثقافة الاجنبية ويحاولون بكل
ما أوتوا من قوة أن يعيشوا ويفكروا ويحسوا كابناء القرن العشرين .

وليس هذا دليل ضعف واضطراب بل هو على النقيض رمز النهضة
وعنوانها والواجب المقدس المفروض على أدباء مصر جميعا . ولكن المهم
في الامر كى يتحقق معنى النهضة وتطرّد حركة الانتاج وتزدهر شتى فروع
الفكر أن تحكم الصلة بين الكتاب المجددين وبين الاغلبية الساحقة من الجمهور
وهذه الصلة الوثيقة لا يمكن أن توجد الا بواسطة النقد النزيه يقوم به
الادباء أنفسهم كما يقومون بالانتاج والخلق .

والواقع ان افتقار نهضتنا الى النقد وتبرم الكتاب به وسخطهم الشديد على
كل من يتصدر له جعل من المستحيل على الجمهور ان يفهم سر الجمال والحقيقة
والابداع فى الاعمال الفنية الصحيحة التى تمخض عنها بعض أدباء مصر .
فالاديب عندنا قد يكون نابغا موهوباً ، وقد يكون عبقرى فذاً . وقد

يخرج من الآثار الأدبية ما يضارع أكمل وأروع مولدات العقل الغربي .
ولكن افتقارنا الى النقد النزيه الصارم يحجب هذا النبوغ وتلك العبقرية
عن أعين سواد الشعب فيظل العمل الأدبي الخارق اغزاً من الالغاز لا يستطيع
التعرف اليه وحل رموزه وتذوق جماله وطرافته الا نفر معدود من صفوة
المستنيرين والمتقنين

ولقد ظهرت في مصر اعمال ادبية متميزة كقصتي (الأيام) و (زينب) مثلاً فلم نشهد
من كبار الادباء رجلاً واحداً عرض لها بالنقد الصارم الحر واجتهد في درس
وتحليل الفن الذي اتبع في وضعها وحاول أن يكشف للجماهير عن نواحي
القوة والضعف فيها ويدل على مقدرة الابتكار القصصي الشائعة بين سطورها
وانت قد تصادف شاباً من هواة الادب ومحبي الاطلاع فتسأله عن
كتاب اعجب به فيعينه لك ثم تسأله عن سر اعجابه فيتردد ويحجم ويتعثر
ويتهى به الامر الى المصارحة بأنه انما ابتاعه وقرأه واعجب به لانه كتاب
مشهور لكاتب مشهور

ومما لا يقبل الريب أن هذا الشاب أحس وهو يقرأ هذا الكتاب احساساً
جديداً وانفتحت مغاليق فؤاده على ميول واهواء جديدة ولكنه يعجز عن
تحديد احساسه ومعرفة جوهر ميوله واهوائه والتدليل على خصائص قوة
الكتاب التي بعثت في صدره ذلك الضرب الغريب من العواطف والاهواء
وانى لا تسأل أية فائدة من نهضة أدبية لا يحسن جمهور القراء تحليلها
وأية فائدة لهم من الاشادة بعمل لا يدركون موطن التجديد والجمال فيه بل
أى عزاء للادباء في مجد يقوم على الشهرة وحدها ولا يستند إلى فكر نير
واحساس مشرق وعقل بصير وقوة ناقدة رشيدة تستطيع أن تقول لماذا هي
تقدر العمل الأدبي وما هي فضائل هذا العمل وما هو سر الحياة
والابتكار فيه .

هذه القوة تكاد تكون منعدمة في جمهرة القراء لأن النقد لا وجود له .
ومن هنا كان شعور الكاتب المجدد بالهوة التي تفصل بينه وبين جمهوره
وبالحاجز القائم بين عقليته وعقلية الشعب .

ولكى نسعى لتقريب مسافة الخلف بين الأديب وجمهوره ينبغي ألا نترك
النقد يرتطم بين أيدي أنصاف الأدباء وأشباههم وألا نفتح صدر الصحف
لهؤلاء ونودع القراء فريسة أحكامهم بل الواجب أن يتقدم كبار الأدباء أنفسهم
فينقد بعضهم أعمال بعض لأنهم وحدهم الذين يستطيعون بحث أعمالهم وتحليلها
وتطبيق الاقيسة الأدبية الصحيحة عليها وتقديرها التقدير الحق وهذاية الجمهور
إلى جوانب الابتكار والتجديد فيها .

أما تقارض الشناء والاسراف في المدح والخوف من مكاشفة الكاتب
المشهور بعيوبه ووضع الصحف تحت تصرف أشباه النقدة يتناولون الأعمال
بفكر ناقص وثقافة محدودة ونظرة تشوبها شوائب الزلنى والمحاباة فمن أكبر
عناصر الفوضى .

والعجيب في مصر اليوم أن الكاتب يعتصر ذهنه ويخرج عملاً أقرب
ما يكون إلى روح الأمثلة العليا التي تأصلت فيه بفرط مطالعته كتب الغرب
فلا يجد أدبياً كبيراً ممن في وسعهم فهمه يتقدم فينقده ويقدره ويكشف
للجمهور عما غمض من خصائص شخصيته .

وهكذا يظل النابغ مخنوقاً والعبقري مدفوناً إلا إذا أتاحت له الظروف
الاستثمار بصحيفة تروج الدعاية لأعماله . وعندئذ لا تكون المسألة مسألة
نقد مادام صاحب العمل هو الذى يسهر على نقد عمله وهو الذى يوعز الى
أنصاره بتقريره وهو الذى يتخذ من صحيفته أداة للشهرة والاعلان عنه .
ومن أسباب فوضى النقد فى مصر أيضاً تأثير مركز الكاتب من الوجهة

السياسية في إنتاجه كأديب ، واحجام البعض عن نقده لتمتعه بهذا المركز السياسي ، وخشية البعض الآخر مما قد يترتب على التقدم اغضاب حزب سياسي معين ، وتصور الجمهور ان في النقد الصارم اعتداء وتنقص غير مباشر للفكرة السياسية التي يدافع ذلك الكاتب عنها

والواجب أن نفرق بين الكاتب كصحفي يعتنق فكرة سياسية ويخدم حزبا من الاحزاب وبين الكاتب كاديب مستقل حر . فلا تتهيب من أن ننقده مثلاً في صحيفة تخدم نفس المبدأ السياسي الذي يخدمه هو ، بصرف النظر عن الرابطة الحزبية التي يجب ألا تعدو شخصية الصحفي كي تغطي على شخصية الاديب فتعطل حركة النقد وتخنق حريته وتحل التضامن الحزبي محل النزاهة والامانة في الحكم والتقدير الادبي

وهذه الظاهرة شائعة في أوروبا حيث لا يخلطون بين السياسة والفكر ، وحيث لا يمكن لعقيدة الاديب السياسية مهما سمت أن تؤثر في أعماله الادبية ، وان تسترضعفها وان تقعد بانصاره في العقيدة السياسية عن المصارحة برأيهم فيها ونقدها النقد البريء المنشود .

ولقد حدث في فرنسا أخيراً أن ليون دوديه أحد زعماء الحزب الملكي اخرج كتاباً عن (المرأة والحب) فما كان من مورييس بوجو ساعده الأيمن في دعواه الحزبية إلا أن نقد كتابه نقداً صارماً قاسياً في نفس صحيفة الاكسيون فرانسيز التي يشرف على تحريرها ليون دوديه .

ولقد حدث أيضاً أن الكاتب الاشتراكي الفرنسي أوجين دابت وضع قصة جديدة تؤيد المذهب الاشتراكي ولكنها لا ترضى الادب والفن الرفيع فما كان من صحيفة (موند) الاشتراكية إلا أن فصلت بين المبدأ الحزبي والواجب الادبي ونقدت القصة في اخلاص وصرامة فأسرع الكاتب

يشكرها ويبدى خالص إعجابه بموقفها في إقصاء الأدب عن السياسة والدفاع
عن حرمة الأدب واستقلاله وحرية

ولكني نحيط بالعوامل التي تعوق نهضة النقد عندنا لا بد من الإشارة مرة أخرى
إلى الفوضى الضاربة أطناها في بعض الصحف والمجلات حيث لا يعنى باختيار
أفراد ذوى كفاءة وعلم يعهد إلى كل منهم بنقد ما تخرجه المطابع في مختلف
فروع الأدب والفن مما يتلاءم واستعداد الناقد وخبرته وكفايته

فالمحامى والمدرس والطبيب والمهندس كلهم يملك في نظر تلك الصحف
حق نقد أى كتاب والتكلم فى أى موضوع ومساجلة أى أديب وإصدار
الاحكام الفاسدة المغرضة التى كثيرا ما يخذع بها الجمهور وكثيرا ما تتخذ صفة
التحديد والفصل اذا نشرتها صحيفة محترمة كبيرة

والواقع أن معظم مجلاتنا وصحفنا أحوج ما تكون إلى تنظيم النقد
وتقسيم أبوابه وتكليف من توافر على دراسة فرع معين من فروع الثقافة
بنقد الأعمال المتعلقة بهذا الفرع . وهو النظام السائد فى جميع المجلات
والصحف الأوروبية الراقية

فالذى اشتهر هناك بنقد القصص لا ينقد كتب العلم والذى عرف بنقد
المسرحيات لا ينقد كتب الفلسفة والذى نبغ فى نقد الموسيقى لا ينقد التصوير
والنحت

ومن البديهي ان كل أديب مثقف يستطيع أن يكتب فى هذه الاشياء
ويستطيع أن يجيد الكتابة فيها ولكن تلك الصحف والمجلات لا تسمح له
بالعرض لمهمة النقد وحمل مسئوليتها الشاقة الا اذا دلت جهوده الأدبية
السابقة على خبرة واسعة وتفوق ملحوظ فى الفرع الذى ينصب نفسه لنقده
وتقويم معوجه

وهكذا يحرصون في الغرب على القيم الثقافية ويطمحون على اقدار
الرجال ويدركون أن لا نقد حيث لا تفاهم وتعاون واستجابة بين الناقد والمنقود
وهم إنما يسعون لايجاد نوع من التشابه الفكري أو المساواة في الكفاءة
العقلية بين الأديب وناقده ، كي يشعر الاول أن هناك من يقدر على فهمه
حق الفهم ، وعلى تقديره تمام التقدير ، وان فكره الثمين لن يبتذل ، وعرضه
الأدبي لن ينتهك وشخصه المعنوي لن تتقاذفه ايدي العابثين من أشباه النقدة
وأدعياء الادب

بهذه الوسائل وأمثالها يحترم رجل الفكر عندهم ويحترم عمله ويستطرد
التطور الذهني سيره في طريق معبد رحب .
فعلينا في مصر أن ندرك هذه الحقائق وان نمثل بها والا قضينا على
حركة النقد وحركة الانتاج معاً



في العالم الشكسيري

فرغت أمس من مطالعة (هملت) لثالث مرة ولا أدري ماذا انتابني طوال يومي فلبثت أفكر كأن هموم الحياة قد تحالفت جميعاً عليّ شاع في ضرب من القلق يخامره الدهول ، وتمثل لي العالم خاويًا من كل فكرة أو معنى ، فشعرت باليأس يكاد يستولي علي وبالكتابة والوحشة تطوقاني وتغلان يدي عن الحركة والعمل والجهاد استطبت هذه الحال النفسية الشاذة واستمرت الركود ورحت أعبث بصور الفضيلة والجمال والحب والموت أظماً ما أكون للسخرية من كل شيء وتدمير كل شيء وفيما كنت أتذوق حلاوة هذا التأمل الباطل كانت ألوح أشباح قصة شكسبير أمام عيني . كان أبطالها يطوفون بمسرح خيالي . وعباراتهم لا تنفك أصداؤها تدوي في أذني .

ساقى اليأس من الحياة إلى التفكير فيها ورأيت نفسي كهملت أبحث عن سرها ، وأحاول النفاذ إلى تلك المجهل القصية التي تكمن فيها منازع الفطرة واحكام الطبيعة وتصاريق القضاء ولكنني انتهيت برغمي إلى التفكير في الرواية نفسها

من هو هملت هذا ؟

قال بعضهم انه المفكر المتطير العاجز الضعيف . وقال البعض الآخر

انه المتهم المريض المعتوه . وصاح غيرهم بأنه الفيلسوف المتأمل الذي يحول
فرط التفكير بينه وبين العمل المثمر العاجل .

أما أنا فأرى غير هذا !

أرى في هملت صورة البطل المزدوج بطل التفكير وبطل العمل .
لم يشك هملت لحظة في أن عمه قتل والده ، وأن أمه المجرمة شريكة
عمه في القتل .

اراد أن ينتقم ولكنه تباطأ في الانتقام وتريث لاعن جبن وعجز بل
عن رغبة شيطانية في مضاعفة الانتقام والتفنن فيه ماشاء له تصوره الملهب
وعقله المتقدم الواسع الحيلة والابتكار .

كان في وسعه أن يضرب الضربة القاضية وينتهى ، ولكنه آثر التريث
لايستوثق من وقوع الجريمة ولا ليستمد الشجاعة من ذكر أبيه بل ليعذب
عمه ووالدته تعذيبا عقليا قبل أن يقضى عليهما القضاء الأخير . اراد أن
يصيبهما في النفس ، في الضمير قبل أن يصيبهما في الجسد . اراد أن يشهد
بعيني رأسه اضطرابهما وحيرتهما وذعرهما وتكفيرهما الحى عن الذنب
العظيم قبل أن يوردهما مورد التهلكة

لذلك تظاهر بالجنون ، وسخر من الفضائل ، وأشار على الممثلين الجوابين
بان يمثلوا امام عمه القاتل قصة تشبه في حوادثها مصرع ابيه المسكين

كان هملت يلتذ كل هذه الألاعيب . يلتذ رؤية الجانين في حيرة من
امره ، فزعين قلقين يتخبطان في ظلمات الشك تصليهما ذكريات الماضى احر
عذاب ويخشى كل منهما الحقيقة والافتضاح والثار القريب من يدى هذا
الشاب الذى يحوم حولهما ساخرا ساكنا متجهما حزينا مندرابا لويل والثبور
كان هملت سعيدا كصياد ماهر يطارد فى حذق وبطء فريسته . صياد واثق

من النصر النهائي الا انه يعتمد اطالة التحايل واطالة اللف والدوران اذ المطاردة ونشوتها احب إليه وأوقع في نفسه من الاجهاز السريع على فريسته .

تلك هي بطولة الفكر . والمفكر بطل وملك وشيطان معاً . وكذلك كان هملت . يفكر في النفس البشرية تفكيراً صارماً عميقاً لا يقف بالعرف الشائع لحظة واحدة ، بل يمزق عن الفضيلة القناع ، فيرى النفاق ممثلاً فيها . وينحني على الأمومة المقدسة فيرى الشهوة ترتع فيها . وينظر الى الجاه والسلطان والمركز العالى الوطيد ، فلا يشهد غير الجبن والزلفى ، ويخاطب المجد فى جماجم العظماء فلا يحس غير التفاهة والعدم ، فيقهقه قهقهة معبوه ويلقى على أمه وعمه نظرة ملكية تعرف كل شيء ، نظرة هابطة من عل تشرف على الجرم الواقع وتستشف دخيلة الانسان .

وبما أنه مفكر . وبما أن الجريمة أتمت فيه خاصة التفكير وألهبتها . فهو يتحدث عن الحياة والخير والشر والجمال والموت وما بعد الموت ، ويفيض فى حديثه ، ويهذى تارة ويجد أخرى ، ويضحك فترة ويبتسم أخرى ، ولا يزال بالحقائق ينتهك حرمتها ويسوقها امامه واضحة عارية زرية فى حكم فلسفية غريبة وعبارات مبتكرة ملأى بالمفارقات والسخر حتى يرتوى ويشمل فتقرر نفسه الجائشة الى حين

فهو يجد لذة فى التفكير إذن ، وكما يلهو بالخواطر والافكار كذلك يريد أن يلهو بتعذيب المجرم والمجرفة قبل أن ينزل بهما العقاب . والواقع ان العقاب العملى الفاصل لايهمه قدر ماتهمه لذة التعذيب البطيء . . .

وهذا هو الجانب الشيطاني فى شخص هملت .

ولو أنه لم يكن بالمفكر المتأمل المتفنن لما تريت فى الانتقام ولعاجل

المجرم بالقصاص ولكنه على النقيض استسهل القضاء لينعم النظر في الجريمة ، ويتذوق حلاوة التأملات الفلسفية التي ابتعثتها في فكره ، ويستخدم هذا الفكر الوقاد لا بداع شتى ضروب التعذيب والمواقف والحيل ، يهزأ بهامن خصومه ، ويوقع الرعب في أفئدتهم ، ويشعر بتفوقه عليهم ، وبسيادة عقله واستطاعته أن يعاقب أو يعفو ، يتراجع أو يتقدم كما يشتهي وحسب ما تلي عليه نوازعه .
أجل ! لقد كان في دائرة الفكر بطلا وهو منصرف الى التأمل في فلسفة الحياة برغم ما يشعر به من ألم . وكان ملكا وهو يطوف بسكان البلاط حاملا حزنه متلفعا بصمته جليلا رهيبا مشرفا على حقائق السكل يمر بها غير محتفل وقد افتر ثغره عن ابتسامة ضجر واشمئزاز . وكان شيطانا وهو يفتن في استخدام فكره ليوقط ضمير أمه وزوجها وينسكل بقلبيهما وروحيهما قبل أن تمتدده إلى الجسد ...

ما كان أفطعه وهو يشهد حفلة تمثيل الفاجعة أمام المجرمة وقرينها .
كان كامشدوه لأن عقله استطاع أن يعثر في النهاية على الوسيلة المخارفة التي تمزق فؤاد الأم وتطعن العم في الصميم .
كان إذذاك بعدما يكون عن النبيل والطيبة والرحمة ، كان مغرما بتعذيب الغير كان يكاد يفقده الرشد لذة بما وصل اليه عقله من مهارة وقدرة وذكاء .
وكذا الفكر البشري متى استندق ونعم احوال صاحبه وحشافي صورة انسان !
هذا هو هملت بطل الفكر وشيطانه وبطل العمل أيضاً ، العمل الذي يسير بخطى السلفاء ولكنه واثق تمام الوثوق من بلوغ الغاية التي يسعى اليها .
كان لا بد لهملت ان ينتقم

كان لا بد له أن يقابل الشر بالشر ويجزى السيئة سيئة مثلها . اذ هو على الرغم من خيالاته وشاعريته أوثق ما يكون ارتباطا بالغريزة واتصالا بالواقع ، والواقع والغريزة كلاهما ينفر من المثل الأعلى ولا يعرف الرحمة ولا يسمح بها .

ان هملت غريزة مضطربة وفكر مضطرب

لقد هموا بخداعه وارادوا قتله بسيف مسموم ولكن المفكر العملي لا يخدع وسرعان ما فطن هملت الى مكيدتهم فراغ منهم وأودى بهم جميعاً من ذا الذى قال عن هذا الرجل أنه خيالى وأنه عاجز . لقد فاز . وما بطؤه فى اعداد معدات الكفاح الا ببطء المفكر الذى يرسم الخطة الدقيقة التى توصل دون شك الى المبتغى .

إنه ل يبدو لى أدرى بمستلزمات الواقع من أى انسان فمأساة هملت ليست هى إذن مأساة الضعف كما يقولون بل هى مأساة القوة ، قوة الغريزة الحاذقة العالمة بما تريد تنقلب تحت تأثير العقل الفاحص المدقق أشد قسوة وفظاعة من الشر الذى تود أن تجازيه ومن المجرم الذى تود أن تعاقبه

لذلك أنا أعجب بهملت وأكرهه فى وقت واحد .
لم ألمح فيه أى شعاع من صفاء ، لم أر فى أعماله أى أثر لتسوق البشرية الدفين الى المثل العليا

انه فرد متفوق وعادى معا ، لم يكديلس الجريمة حتى استحاله هو أيضاً مجرماً اما المثل الأعلى فقد قتله ، خنقه بكلتا يديه فى شخص الفتاة الرائعة التى تمثله ، أو فيليبا الطاهرة المحبة العظيمة ، التى لما أن عرف بانتحارها لم ينطلق صوته بصرخة تبكى عميقة واحدة

أين هملت ؟ أين هو من ديمترى كارامازوف أحد أبطال قصة الاخوة كارامازوف للروائى الروسى فيدور دوستويفسكى ؟ ذلك الشاب الذى أدرك أن معظم أفراد أسرته مجرمون فضحى بنفسه وارضى السجن بدلا من أخيه .
قدم ذاته قربانا وفدية عنهم جميعا

ولكن الادب الاوربي لم تلمع في سمائه أبداً مثل بارقة الرحمة هذه
فشكسبير أراد أن يصور لنا رجلاً تنازعتة عوامل ، التفكير
والعمل ، فلم يستطع الا أن يعمل . ان ينتقم في اصرار ومهارة ووحشية
لأنه مفكر قبل كل شيء . ولأنه مفكر أوربي عملي قاس يريد أن يصل الى
نتيجة عملية خارقة . ولأن الفكر طغى في نفسه على كل شيء وخنق القلب
والاحساس .

وأنا أود أن أصارح بأمر قد يبدو للقارىء غريباً ولكن الحوادث
تؤيده كل يوم

أليس هممت هذا هو مثال الرجل الانجليزى خاصة والاوربي عامة ؟
الرجل الذى لا يدين بغير الواقع ولا تعرف الطبيعة والرحمة الى قلبه
أى سبيل ؟

الرجل الذى يفكر ويتثقف ويتفلسف ويطاول القوى الخالقة ويخاطب
أسرار الطبيعة ويفهم الغير حق الفهم لا يصفح عن أخيه الانسان ويعاونه
ويحبه بل ليتحين الفرص للايقاع به فى بأس يزيد تفنن العقل المثقف شدة
وعمقا وخطورة ؟

أجل ان هذا الرجل هو الإنسان . ولكنه الانسان الغريزى الذى أنمى
عقله لمصاحبة غريزته . أى لخدمة الشر والابقاء عليه والاشادة به كوسيلة من
وسائل الانتقام والقوة والعدل
لذلك أنا لا أحب هممت !

فى عالم راسين

يقول المؤرخ والناقد الايطالى الكبير جوجليلمو فيريرو ان النزعة
الجرمانية السكسونية فى الأدب والفن وفيما يتعلق بشؤون الاجتماع نزعة
ترمى إلى القدرة والتغلب اما النزعة اللاتينية فترمى إلى السكالم

وهذا ما أحسست به تمام الاحساس وأنا أشهد تمثيل رواية (فيدر)
للشاعر الفرنسى العظيم راسين على مسرح الكورسال

لقد كانت تمثل دور فيدر الممثلة الذائعة الصيت مارى تيريز بيررا

وقصة فيدر هذه هى قصة الحب المحرم فى أفعج الوانه . قصة امرأة تغرم
بابن زوجها فلا تصادف منه غير الصدد والاجتواء وضرب من الكبرياء
القاسى وعدم الاكتراث

تثور نائرة فيدر وتشتعل فيها نوثتها المهانة وتتقلب بين واجب الزوجية
وواجب القلب وهذا التقلب نفسه يزيد فى حبها اشتعالا وفى غرائزها
الشاذة تأججا واضطراما فتصارع ابن زوجها بما يكنه فؤادها المعذب
من هوى ، فيستنكر الشاب هذه العاطفة وينحى باللائمة على زوج ابيه ولكنها
تجشو عند أقدامه مستعطفة شاكية فيهوله منها تهتكها وأصرارها ، ويستفطع
كيف لا تتورع عن العبث الصارخ بأقدس الواجبات فيود ان يفر منها
فتقنط وتهيب به ان يسرع فيقتلها انقاذا لها مما فيحجم فتمتشق حسامه
تريد غماده فى صدرها .

ولكن العاطفة الملتبسة هي بعينها غريزة الحياة ، وهي التي تحفز الانسان على التشبث بكيانه والدفاع عن حقه أو لذته ، وقد ما كان الحب اقوى من الموت ، فقيدر لا تنتحر ، وانما هي تعيش لاستزادة غرامها قوة والنذاذ ما يحدثه لها من الم ، والعمل على امتلاك حبيبها ان طوعا وان كرها

وبينا هي تناضل ما استطاعت للفوز ممن تحب تعلم بغتة أنه يهوى سواها ويؤثر عليها مفاتن امرأة اخرى دونها جمالا وسلطانا ، وعندها يصبح قلب فيدرأتونا متقدما من الانفعالات المتضاربة العنيفة بل بركانا ثائرا يقذف مافيه من حمم على كل ما يحوطه من اشخاص وأشياء

ولم ار في اروع قصص الأدب صورة مخلوق جمع من العواطف ما احتشد في صدر فيدر نفيانة الزوج الراحل والحب المحرم ، والاحساس بالوحدة ، والاتضاع والذل والتوسل والضراعة والشهوات الجثمانية الجاحمة العمياء والغيرة المشتعلة الفاتكة ورغبة الانتقام والتشفي والياس المستحوذ الأليم . كل هذه الاحساسات تعصف بتلك المرأة وترفع بها من مستوى الانسان العادى إلى مستوى البطل الذى يتحدى العرف والقانون والذى تجرب عليه الحياة عناصرها بل الذى تتمثل فيه حياة الغريزة الحرة التى لا تأبه لسلطان المجتمع وأوضاعه بل تنصب سيولها ورغباتها فى نهر اللذة الجنسية غاية الانسان الاول كالنوم والطعام والقتال .

وأروع ما فى فن الشاعر العظيم راسين هو انه يتدرج بشخصية بطلته فيدر من الحب الى الذلة فالالتماس فالغيرة فالانتقام فالياس فالعدم واذا بها تنمو أمام عيوننا وتتضخم شيئا فشيئا كعاصفة تبدأ سحبا ملبدة ثم تعود رعودا قاصفة فجليدا فامطارا ثم سكونا ترجع بعده الحياة الى سابق مرحها وعدم احتفالها

ولو أن شكسبير كان قد تناول هذا الموضوع ملأه بالاستعارات الهجامة الغريبة والتأملات الفلسفية البعيدة الغور ، والصور والخيالات والرؤى التى يسبغها كعاداته على أبطاله فيخيل للسامع أو القارئ أنها خرجت من مسرح خيال الشاعر قبل أن تخرج من جوف الحياة .

وهذا هو فن القدرة كما يسميه الناقد الايطالى فيريرو .

فن تتحكم فيه عاطفة الفنان وينبع من مخيلته وفطرته تختلط الوانه وتهدر موسيقاه فى غير ما وعى أو حساب

فن قوامه الجروح فى تصوير الانفعالات ومراكمة التشايبه عليها حتى تغيب فى غمرة الجنون المستولية على خيال الشاعر .

فالبطل من أبطال شكسبير يعمل فى الخيال وهو يعمل فى الواقع . أى أنه يتحرك وسط التصورات الشعرية بينما هو يتحرك وسط الحياة خيالاته العملية تنحدر من التصور الشعرى مباشرة فتبدو لنا خارقة وعلى شئ من الشطط الذى اتباه ذهن الشاعر

أما راسين فلا تحول تصورات الشعرية بين أبطاله وبين اتصالهم المباشر بالحياة .

فهم أقرب الى الواقع اليومى الذى نحسه أمامنا على الفور من أبطال شكسبير هم أوضح إحساسا واجلى عاطفة ، وابصر بدخيلة نفوسهم من أبطال شكسبير .

ويرجع هذا إلى أن فن راسين فن متزن يشيع فيه الاتساق والتناسب والمنطق والقياس وتلاؤم الألوان وتجانسها وسطوعها .

وهذه الفضائل لم تنضج فى أعمال راسين إلا لأنه جمع إلى تصور الشاعر تحليل الناقد وهدوءه ففهم مزيج متعادل من العاطفة والعقل ، لا تلبث العاطفة

ان تجميع وتشرع في اخفاء الانفعالات تحت سبيل الخيالات الشعرية
الغريبة الداوية حتى يردّها العقل الى الواقع ويوازن بين اجزائها فتبدو لنا
الشخصية إذ ذاك حية معقولة تفيض علينا بالتصورات الشعرية التي يسمح
بها الموقف الذي تتخبط فيه لأكثر ولا أقل

فكمية الشعر عند راسين لا تربي على الحادثة نفسها ولا تزيد عما يمكن ان
يجول بخاطر بطله في الحياة

فهى إذن خاضعة للموقف اما عند شكسبير فهى خاضعة لخياله ، خيال
العبقريّة الجارف الذى لا يأبه للقياس والتناسب ولا يهتم بجمال الأشكال
والاوضاع مادام جوهر الشخصية الانسانية صادقا سليما صحيحا .

فشكسبير بعيد عن الحياة المباشرة ولكن الحياة العميقة تنمو فيه وتزدهر
وراسين يحاول أن يوفق بين مظهر الحياة المباشرة وجوهر الحياة العميق
الاول عماده الغريزة والوجدان قبل العقل والثانى يهتدى ساعة الخلق
بالغريزة والعقل سويا . فنحن نخاف شكسبير ونطمئن لراسين

نخاف شكسبير لأنه الطبيعة المكتسحة العمياء ونطمئن لراسين لانه
إنسان متحضر يريد ان ينفذ بعقله واحساسه الى لب تلك الطبيعة العمياء
يريد ان نفهمها ويسيطر عليها ويسودها بالعقل المحلل الفاحص بينا
شكسبير يشربها نفسه ويندمج فيها ويؤديها صاحبة عاصفة كما هى

ونحن لا ننزع الى المفاضلة بين الشعاعين فالفن غير العلم ومتى أقنناه على
قواعد ثابتة حولناه عن غايته ورجعنا به القهقرى

وهل يمكن أن تكون لمختلف العواطف الصائبة فى مختلف قلوب الناس
قواعد وحدودا

وهل أنا أرى العالم كما تراه أنت وهل أحس الحب والبطولة والدعابة

والتضحية كما تحسبها أنت بل هل أنا أفهم الخير والشر كما تفهمه أنت ؟
ما الفن إلا محض رؤيا مستقلة شخصية تنبع من الفرد وترجع اليه .
وبقدر ما فى الدنيا من مخلوقات ساجدة على سطح الحياة بقدر ما فيها من
ألوان الجمال

والفنان العظيم هو الذى يستطيع أن يمنحنا صورة جديدة للعالم . هو
الذى يمكنه أن يراها بغير العيون التى تراها أنت بها . وكلما كان احساسه
عميقاً ونظراته نافذة أمارط لك اللثام عن مباحج ومناغم مستحدثة
طريفة لم تفتن أنت اليها لفرط ما قد شغلتك ظواهر الاشياء عن انعام النظر
فى بواطنها .

ففن راسين هو رجوع صدى مزاجه وهو أثر من آثار عنصره اللاتينى فيه .
فالشعوب اللاتينية تنشد فى الفن السكالم أى المنطق والوضوح
والاتزان وتناسب الأوضاع ونظامها وتتوسل الى ذلك باخضاع العاطفة
لحكم العقل .

والفن اللاتينى تشوبه الروح العلمية والفنان اللاتينى يمت الى العالم بأوثق
صلة ، فالعالم يعتقد أن للطبيعة نظاما وقوانين عليه أن يفهمها ليسيطر عليها
وينتفع بها وكذلك الفنان اللاتينى يحاول أن يسيطر على العواطف ليفهمها
وينفع بها الانسان فى تفهم ميوله الخاصة وميول الآخرين وضبطها وتسييرها
فى سبيل مشر يخطه له العقل .

أما الفنان السكسونى أو الجرمانى فهو فى الغالب لايهتم بأن يسود
الطبيعة بل يطمح الى الانطواء فيها والفناء فى أشكالها فناء يحيله عنصرا حيا من
عناصرها إذ الفن فى عرفه تمجيد لقوى الحياة قبل أن يكون دراسة عقلية
لتلك القوى وكلا الفنين عظيم وكلاهما رائع وجميل .

وان من يؤثر أحدهما على الآخر أو ينتصر لهذا على ذاك ينكر على المزاج
البشرى مميزاته وغناه ويشير معارك جدلية لا طائل تحتها .

غير انى اذهب فى تقديرى لقصة فيدر مذهبا خاصا فأقول انها ملتقى
النقيضين ومجمع النزعتين . القدرة والكمال

فاندماج الشعاع راسين اندماجا تاما فى العواطف المتفريزة الجاححة الهوجاء
متوفر فيها وهذه هى روح القدرة

واتزان الاسلوب ووضوحه وتحليقه فوق العواطف صافيا ساطعا
متوفر فيها أيضا الى ابعد حدود هذه هى روح الكمال .

بل أكبر ظنى أن الكمال متوفر فى الجوهر أيضا أى فى طريقة بسط
العواطف وتدرجها وتسلسلها الطبيعى الحى وفى تولدها من بعضها البعض وفق
نظام شكلى لا يحد سير العاطفة ولا ينتقص قوتها وسلطانها . وتلك هى المعجزة
وانها فى الحق لمعجزة يقف لديها السامع المشاهد خاشعا حائرا . فها هنا
القلب الانسانى بما فيه من حب وبغض . شفقة وحنان . تضحية وانتقام .
وليس القلب الانسانى فقط بل الجسم الانسانى أيضا أى الشهوة التى تزيد
الاهواء اضطرابا وتكسب العواطف من تفاعلات البدن ما يضاعف حدتها
ويجعلها غريبة مضطربة متناقضة معقدة كعواطفنا جميعا

ولم تكن الممثلة النابغة مارى تيريز بييرا تمثل دور فيدر بل كانت
تعشقه عشقا فلم تكذب تبرز على المسرح وتخطف بضع خطوات حتى شعرت
بالقضاء ممثلا فى عشقها المحرم يحلق عليها كما كان القضاء ممثلا فى الجريمة
المزدوجة يحلق على الملك أوديب

كانت إشارات مدام بييرا ولفاتها وجلة مذعورة كما (فينوس)
قد جعلت منها حقا فريستها وشدتها اليها كما يقول راسين

فزيئر مختلف العواطف كان ينطلق من صدر الممثلة فاجعا رهيبا
بقدر ما كانت تحس أن لا سبيل لها الى الخلاص من تلك العواطف
كانت تناضل وتستنكر وتستشيط وهي تعلم في قرارة نفسها ان لا قبل
لها بمقاومة القدر فتكاد تجن يأسا من ضعفها والتذاذ بهذا الضعف وهذا النضال
ولكن المرأة قوية ، قوية الى حد البطولة في احتمال كمال ما يمكن أن
يصيبها به الحب

وبطولة الحب في الألم والاحتمال والتحدى هي التي استوت امامي طائفة
جبارة في شخص الممثلة النابغة ماري تيريز بييرا .

لن أنسى هذه الليلة فقد انقذتني من تشابه حياتنا المصرية وضجرتها ، من
ركودها وهمودها ، من مجونها واستهتارها بل من الجبن العاطفي الذي
ابتلت به الحضارة أرواحنا .

الا اني برغم الاحساسات العظيمة التي خالجتني وانا أشهد هذا العمل
الفني المعجز وبرغم الحيوية الدافقة التي صبها في عروقي خرجت اسفا
حزينا كاسف البال .

لم يكن في المسرح مناغير خمسة .. خمسة فقط من الشباب المصريين !

الفنان والمرأة

يعتقد معظم رجال الادب والفن أن لابد لهم من المرأة ترافقهم في جهادهم اليومي وتمنحهم عطفها وحبها وتخلق لهم ذلك الجو الهادئ الذي يجب أن يسود حياة الفنان كي يؤدي رسالته وينتج العمل الخصب القوي . ومن الفنانين والأدباء من يستوحى الطبيعة كجان جاك روسو ، ومنهم من يجد الإلهام الشعري في الدين والتصوف كرابندراناث تاغور ، ومنهم من يفجر ينابيع الشعر والفلسفة من ذات نفسه أي من انانيته وعظمته وبطولته كسفرديك نيتشه . ولكن هؤلاء وغيرهم مهما تباين وحيهم الفني ومهما اختلفت عقولهم وأمزجتهم ونظراتهم إلى الحياة ترى الغالبية فيهم ما تزال تنزع إلى المرأة وتتطلبها وتجدها فيها مستهبط الوحي الاكمل والصورة الابدية الجامعة شتى خصائص الحياة .

والواقع أن المرأة بجهاها الذي يبدو في خيلة الفنان منوعا طريفا دائما الفتنة والتجدد ترمز إلى الطبيعة الكبرى وما فيها من متعدد الاشكال والالوان .

والمرأة بعواطفها المضطربة المشوشة المحتدمة ذات الغموض والتعقد ترمز إلى النفس البشرية وما فيها من غرائب واسرار . لهذا احبها الفنانون وأولعوا بها وتфанوا في اطلابها وجعلوا منها الوحي الاصيل المتألق بمختلف أضواء الحقيقة والجمال

والمرأة من جهة أخرى مخلوق رقيق المظهر عذب الحديث . حلو المعاشرة
يغرى بالصفاء الروحي والهدوء العقلي والنظام البيتي ، وكل هذه عوامل يحتاج
اليها الفنان عندما يستجمع قواه الفكرية ويعتزم الانطواء على نفسه واعتزال
العالم والانصراف إلى الانتاج والخلق

وأنت لا تسكاد تدرس حياة أديب أو فنان حتى تلمح أثر المرأة - سواء
أكانت زوجة أم عشيقة أم أختاً أم والدة - لافي تكوين شخصيته فحسب
بل في تكوين عمله وفكره أيضاً

وقد يتفق لأديب أن يسعد بامرأة ترعاه بعين رعايتها وتقدر عقله
ومواهبه وتخلص في حبه وخدمته وتحفره لاحتمال التضحيات من أجل
تحقيق رسالته :

وقد يتفق لآخر أن يشقى بالمرأة التي هام بها وأرصد عليها جهد قلبه
واستودعها خلاصة هواه وآمن بكل جارحة فيه انها مستقر الهامه وسر
عبقريته ، ولكن الحق الذي لا شك فيه أن الحب الخائب - بالنسبة للاديب
والفنان - انفع للأدب والفن من الحب المتبادل المنتصر

ونحن لانعرف في تاريخ الأدب والفن الا نادرا ان حبا متبادلا كاملا
عظيما تمكن من تغذية عبقرى بعناصر انسانية جديدة وهى لفهم جوانب
من الحياة كان يجملها

وما الحب الكامل الا صفاء وحلم وسكون أقرب الى الجمود والاكتفاء
بالواقع منه إلى النشاط والتجدد والاتصال المطرد بقوى الطبيعة والبحث
الدائم عن المجهول

وقد يساعد الحب الكامل أو الحب الموفق الاديب أو الفنان على
الانتاج بما ينشره حوله من جواهرى . ولكنه ان يجديه نفعا في زمن التحصيل

والادخار وجمع الحوادث والآراء والمعلومات والملاحظات التي سوف
يبني عليها سلسلة أعماله الفنية المقبلة

وانى أرى ان الفنان أو الأديب لو اعترضه في مستهل حياته حب موفق
ارغمه على الاكتفاء بامرأة واحدة فلا بد ان يفرض به ذلك الى قبول النضحية
بجزء كبير من فضوله الفكرى فى سبيل مرضاة حبه والمرأة التى يحب
أما ذلك الذى يحب فيخيب فيتجه بأبصاره وعواطفه نحو مخلوق آخر
فرجل أحس وتألم واختبر وأثرى

وإذن فلا بد لرجال الأدب والفن من المرأة ولا بد لهم منها على اعتبارها
صورة تمثل النوع والطبيعة وتتشكل باشكالهما لا على اعتبارها امرأة معينة يجب أن
تحب دون غيرها من النساء

ومعنى ذلك أن الأديب أو الفنان الصحيح يهوى المرأة فكرة من الأهيكل
وحقيقة . وهو ان أولع بهذا الهيكل فلا مندوحة له عن هجره الى سواه
وإلا أصابه منه الخور والجمود والصفاء الشبيه بالعدم

وكيف نطلب إلى الأديب أو الفنان أن يفعل ما يفعله الناس فيجمع
العالم فى انسان واحد ويرى الجمال فى وجه واحد وينشد الحقيقة فى نفس واحدة
انه أبداً متقلب متلون كالمرأة نفسها ! أليست المرأة مخلوقاً أهوج طائشاً
صبيانياً محمولا على تيار النزوات الطارئة والميول والاهواء المتعاقبة ؟
ثم أليست هذه النزوات والميول والاهواء هى التى تجعلها اوثق من
الرجل ارتباطاً بعناصر الحياة الاولى . وأقدر على فهمها وأشد احساساً بها
وأسرع فى الاستجابة لها ؟

وكذلك الأديب أو الفنان لا يجد له ولا حياة ان هو لم يستسلم كالمرأة لمختلف
تلك التيارات . ولكن الفارق بينه وبين المرأة ان المرأة تحس أكثر مما

تدرك ، وتحس وتدرك لتستمع بهذا الاحساس والادراك وتنتفع بهما في حياتها العملية أى ان احساسها وادراكها يتبددان ويفنيان في المتعة والفائدة التى تشعر بهما فى نفسها ولنفسها

أما الاديب أو الفنان فيحس ويدرك لنفسه ولنا . يريد أن يهمل ويمجد ثم يعبر ، يريد أن يستمتع ويسود فى وقت واحد . يريد أن يسيطر على الطبيعة برسمها وتحليلها لأن يخضع لاحكامها ويتخذ منها اداة نفع وشهوة

وفى ذلك يقول الكاتب الالماني الاشهر نوفاليس : « انى لا تشعر بدافع غريزى يدفعنى الى حب كل شجرة وزهرة . والتغنى بكل نهر وجدول . والاعجاب بكل لون وضوء وعبادة كل امرأة وفتاة . ولو انى انصرفت عن هذه الروائع الى بعضها أو الى واحدة منها لشعرت على الفور ان أعضاء رئيسية تبتز من بدنى وانى صائر الى الموت لاحالة فى حين انى ماجئت الى هذه الدنيا الا لتقترن حياتى بحياة الرجال والنساء والطيور والنباتات والانهار وكائنات الارض جميعا »

هذا هو الفنان ! لا يقنع بشئ ولا يمكن أن يرضيه شئ ، تستخفه اليوم عين ساحرة لتأسره فى غدو وجنة ناضرة . يعصف به اليوم حب جامع يظنه باقياً فى نفسه أبداً فلا يكاد يمتص عصارتها ويرسمه فى لوحة أو قصة أو قصيدة أو أغنية حتى يتبرم به ويزدرية وينزع إلى سواه

انه يأخذ ليلقى ، ويلقى ليجمع ، ويجمع ليعطى عن سخاء لا يبارى ، وهو فى جميع هذه الحالات يتألم ويغتبط بألمه ويرى فيه سر السعادة والخلاص

وليس أبلغ من الدلالة على ماتقدم من شخصية الروائى الروسى إيفان تورجنيف فقد كان فناً إلى أبعد حد يقدر النساء أياً كن ويرى فى المرأة المادة الفنية قبل أن يرى فيها الجانب الشهوى

وكان اذا جلس الى سيدة في إحدى صالونات بطرسبرج أو باريس لا ينفك يحدق الى عينيها أو فمها أو صدرها عله يعثر على الفتنة البارزة فيها المعبرة عن جمالها الخاص ، ثم يودع هذه الملاحظة مذكرة التي لا تفارق جيبه كي يدسها ذات يوم في عرض قصة من قصصه الخالدة

ومن النصائح التي أسداها لأديب ناشئ قوله ينبغي ألا تقيم نفسك بعاطفه واحدة . إذ العاطفة المتحكمة القاسية تحد من عقل الأديب وروحه . والواجب أن تفتح مغاليق قلبك لشقى الاحساسات والميول

وبالرغم من هذا أحب إيفان تورجنيف المنغية الشهيرة مدام فياردو حباً عظيماً . وكان يلتقي بها الآونة بعد الأخرى في باريس . ولكنه لما اضطرت الظروف الى العودة الى وطنه روسيا لم يتمالك نفسه من التطلع الى غيرها من النساء اللواتي كان يرى فيهن مادة جمال جديدة تصلح لأعماله الفنية المقبلة

وهكذا الأديب أو الفنان يطمح الى الحرية ويكره الاستبداد ولو على يد أحب الناس اليه .

وهذا ما تفهمه المرأة حق الفهم لذلك هي تحذر الفنان ولا تؤمن بحبه ولا تعتقد صدق عواطفه وثباتها . إذ المرأة تطلب الرجل بجمعه لها ، وتفرض عليه الاكتفاء بها فرضاً ، والفنان الصحيح كالطائر البري لن يستطيع بأى حال من الاحوال أن يحيا في قفص ولو كان هذا القفص من الذهب الخالص وعند ما اصطدم القصصى والفيلسوف ليون تولستوى بامراته في آخر أيام حياته وألفاها وقد انقلبت شبه عدوة له تحارب أفكاره وتسخر منها ، ثارت ثائرتة على المرأة التي أحبها الحب كله وصارح نفسه والناس انه كان خيراً له لو لم يتزوج ، وانه خير للأديب أو الفنان على الاطلاق الا يقيد حياته

بامرأة تستبد به وترغمه على النظر الى نفسه والعالم من خلال عقلها الضيق
واحساسها المحدود وعينها النفعية التي لا ترى غير الارض . . .

ولو أنعمنا النظر في شخصية أى نابغ أو عبقرى من رجال الفنون والآداب
لتبين لنا أنه فى قرارة نفسه يطلب الحب ويخشاه ، يسعى اليه ويرتعد لمقدمه ،
يتحرق عليه ويروغ منه ، وهو إنما يخشى الحب الصحيح ، الحب العاصف ،
الغلاب القوى ، لان هذا الحب فى الحقيقة أعصار يكتسح فى طريقه العقل
والنفس ويلقى على البصيرة والبصر غشاوة يستعذبها المحب بقدر كشافتها
وظلامها وبقدر ما تقصيه هو وحببيه عن بقية العالم

وقد يحس النابغ أو العبقرى هذا الحب بل قد يتهاك عليه ويتفانى فى
طلابه ولكن سرعان ما يسأمه ويزهد فيه ويتملص منه ، إذ العبقرى أو
النابغ يريد أن يرى ويفهم وقيس ويفاضل ويتجدد ويؤدى ، وهذا هو
السبب فى أنه من المستحيل عليه أن ينسى نفسه أو يتناساها فى أية امرأة ، وان
يجب هذه المرأة الحب السكامل المنشود

ولو أن هذا الانسان الغريب أحب وتدله فلا بد أن تبقى مع ذلك
فى قلبه زاوية خفية مفتحة على الدوام لاستقبال كل وافد جديد . . .

والسر فى شقاء رجال الأدب والفن أنهم ينشدون السكالمطلق ، والمرأة
قد توحى لهم هذا السكالم ولكنها تعجز عن تحقيقه فى ذاتها ، بل هى لا تفكر
فيه ولا تنزع اليه بحكم طبيعتها العملية واتصالها الوثيق بحقائق الحياة المادية
وفرط شعورها برغبة الرجل الشهوية فيها وبغريزة حفظ النوع الشائعة فى
كيانها الحسى والمعنوى . وهم يحسون ذلك منها ويشرفون على الهوة
الحقيقية التى تفصل بينهم وبينها ويلبسون الفارق العظيم بين طبيعتها الراكدة
ونفوسهم الملتهبة فما أن يكاد يهيم بها واحد منهم ويستشعر حيالها بما قدمنا

حتى ينفر منها ويعرض عنها إلى غيرها ويظل يتقلب من امرأة إلى أخرى
باحثاً عن تلك التي في وسعها أن تحقق مثله الأعلى ولكن على غير جدوى .
والأرجح أن ليست هي حقيقة المرأة التي يستوحىها الأدباء أدبهم
والفنانون فنهم ، وإنما هو وهمهم عنها وخيالهم منها وما يضيفه هذا الخيال عليها
من رائع الألوان والصور

والواقع أنه من الصعب أن يجمع رجل الفن بين حبه لفننه وحبه لامرأة ، إذ
الفن أو الأدب متى أولع به صاحبه وانقطع له وشاء التفوق فيه ، استولى عليها
كأجمل وأكمل امرأة ، وحل في قلبه وعقله محلها ، وصرفه عن سائر الأشياء
والتهم حياته كلها !



نظرات في فن القصة

— ١ —

(القصة المصرية بين المبالغة والحقيقة)

من الأدباء النازعين الى كتابة القصة في مصر من يظن أن الفن القصصى محض وهم وتخيل وتصور، وأن ليس على الراغب في وضع قصة الا أن يتمثل في ذهنه شتى الحوادث والاشكال والعواطف، ثم يربط بعضها ببعض الآخر في واقعة غريبة مخترعة يبذل قصاراه في حشرها بالاحاساس العنيفة والمفاجآت المدهشة والمواقف الفاجعة التي تهز الاعصاب وتستدر الدموع وأنت لا تكاد تقرأ قصة مصرية من وضع كاتب ناشئ حتى تلمح فيها أثر هذه الظاهرة واضحا كل الوضوح في الموضوع والسياق ورسم الشخصيات وتسلسل الحوادث

وإذا كنت من رواد المسارح المصرية لاستقر في ذهنك لاحالة أن هذه الظاهرة الطفلية الساذجة هي التي أجهزت على المسرح المصرى وعلى معظم القصص التمثيلية التي يؤلفها كتابنا وتعرض على مسارحنا في تهليل كبير وفي طبل وزمر وفي اعلانات طويلة عريضة تتحدث عن نبوغ اصحابها وعبقرياتهم وجهودهم العظيمة

فالقصة عندنا سواء أ كتبت للمطالعة أم للمسرح لا يقصد بها واضعها غير مساعدة القارئ أو المتفرج على قتل وقته .

ولكى يظهر القصصى براعته فى التسلية وقتل الوقت يعتمد الى الحوادث المزججة الرهيبة غير المعقولة فيرا كمها فى جهل وسخف مرا كمة لفرط غلوها واسرافها لا بد أن تؤدي فى النهاية الى نقيض المطلوب من القصة أى الى استشارة الهزء والسخرية والضحك

ولقد كنت فيما مضى من عشاق المسرح المصرى ومن رواد المسارح المصرية المواظمين، تبهرنى الاعلانات الضخمة وتحدث فى نفسى تأثيراً منعشاً لذيذاً يدفع بى الى مشاهدة كل قصة مصرية جديدة على أعثر على المؤلف المنشود الذى فى وسعه ابتكار القصة القومية المستغاة، ولكنى فى كل مرة كنت أجد نفس الاسراف ونفس المبالغة ونفس الخيال المريض ونفس العقم ونفس الدجل والتهويش فاخرج أسفاً حزينا متمزج فى نفسى الحسرة المرة بالرغبة الشديدة فى الضحك الذى ينفس عن الصدور ويجدد فيها رغم كل شىء احساس التفاؤل وعاطفة الأمل

وهذا الشعور بعينه يستولى على عند مطالعة قصة وضعت للقراءة فلا أكاد أقلب منها بضع صفحات حتى أستشعر الحزى الذى لا يديحسه صاحبها لو أنه أوتى مسكة من العقل والذوق السليم. ثم ينتهى بى الأمر الى الاستغراق فى الضحك من كل هذا الهراء

والواقع أن هذه الظاهرة من الخطورة بمكان عظيم فالروايات الغثة من مؤلفة ومترجمة قد انتشرت انتشاراً واسعاً بين جمهور المطالعين والقصص التمثيلية التهويشية قد طغت على المسرح المصرى وسممت عقول الشعب وأفسدت أذواقه وشوهت ميوله الفطرية البسيطة وعلمته الكذب والنفاق وأغرته بحب المبالغة فى كل شىء

وهذه المبالغة الممقوتة هي الأصل في انحطاط الذوق الفنى عندنا . فنحن نبالغ في عواطفنا فنذهب إلى أقصاها دون أن نحكم فيها أذواقنا وعقولنا . فإذا ضحكنا نضحك حتى القهقهة ، وإذا بكينا نبكى حتى العويل ، وإذا أحببنا تهتكنا فى حبنا ، وإذا ارتدينا ثوباً جديداً تخيرناه صارخ اللون ، وإذا خطر لنا أن نرسل نكتة ظريفة أقنأها أيضاً على المبالغة ، وإذا كتبنا أسرفنا فى الألفاظ والعناية بها على حساب الفكر والعاطفة الصادقة .

فالمبالغة هي طابعنا . وهى طابع الشعوب التى لم تصقلها الثقافة المتوارثة ولم يعمل فى تهذيبها الفن الصحيح .

والحقيقة ان البيت المصرى والزى المصرى والاسلوب المصرى ، جميع هذه العناصر التى يتألف منها فكر الامة واحساسها مازال مشوبة بداء المبالغة الخبيث

فاستنادا الى ما يحسه معظم الكتاب من تفشى هذا الداء فى الامة وتشبثها به وحبها له والتذاذها أعراضه يقدمون على وضع القصص التهويلية التى لا يكاد يروج فى البلد سواها

وبعض هؤلاء الكتاب يدرك ما يفعل ولكنه يمضى فى عمله بغية الكسب والبعض الآخر وهو الأغلبية يضع تلك القصص لان ليس فى مقدوره وضع غيرها أصاح منها وأقرب الى الفن ، ولأنه هو نفسه مصاب بالداء المصاب به الشعب

وفى كلتا الحالتين يجد الكاتب أن قصصه تروج وتتخاطفها الايدى وتدر الريح الوفير فيظن ان النجاح هو مقياس الفن وأن القصة الناجحة هي التى تصادف هوى من نفوس الجماهير وان خيرا له ألف مرة أن يضع قصة ناجحة من أن يرهق نفسه بآراء ومبادئ فنية تباعد بينه وبين عقلية الشعب وتقضى

على عمله لا بالفشل المادى فقط بل بالسقوط الفنى أيضاً لأن حكم الشعب هو الذى يفصل فى قيمة العمل المادية والفنية على السواء

فأنت ترى من هذا أن الأغلبية عندنا مريضة وان الكاتب نفسه مريض .
وانه لم يتكون عندنا حتى الساعة ذلك الرأى العام المثقف الذى يفصل بين الأعمال الفنية والأدبية ويحدد قيمتها ويستطيع بما له من نفوذ أدبى أن يحدث تأثيراً ولو نسبياً فى اتجاه ميول الكاتب وميول الشعب

ولكن هل معنى هذا أن ليس فى البلد نهضة أدبية قصصية وليس فيها طائفة من الكتاب ينزعون نزعة فنية نحو ابتداع أدب قصصى موفور قوى الحياة والجمال ؟

الحق أن هذه الطائفة موجودة ولكنها تنقسم الى فريقين . فريق تغذى بمختلف الثقافات الأدبية الاجنبية وعرف حق المعرفة المراد بكلمة أدب وفن وقصة وفريق لم تسعده الظروف بدراسة تلك الثقافات أو لم يفهم أصولها وتعاليمها على حقيقتها فضى فى طريقه غير حافل بها يضع القصص تلو القصص معتمداً على خياله وحده وعلى ما يظن انه يعرفه من أخلاق الناس وعاداتهم وميولهم وعواطفهم

وبين هذا الفريق الثانى نفر ممن يحسنون على الاقل لغة أجنبية فهؤلاء يحتاجون الى الامعان فى دراسة الأدب الاجنبى وبينهم من لا يعرفون سوى العربية وهؤلاء فى حاجة الى تتبع الدراسات النقدية عن الفن والأدب الأجنبى التى تنشرها مختلف المجلات والصحف لأدباء مجتهدين مثقفين كى يقفوا منها على النظريات السليمة والقواعد الفنية المقررة التى ينهض عليها فى الغرب فن الكتابة وفن القصة

وهنا أريد ان أقف بالقارىء لحظة لأقرر ظاهرة مرضية أخرى يشترك

فيها جميع الأدباء المصريين النازعين الى وضع القصة سواء منهم المثقف
بالأدب الأجنبي وغير المثقف . ولا يستثنى منها غير بضعة افراد قلائل يعدون
تقريباً على أصابع اليد الواحدة

وهذه الظاهرة هي الاستهتار بالحقيقة والاعتماد المطلق على الخيال
فالحقيقة في نظر أولئك الكتاب لا شيء والخيال هو كل شيء . والفن
القصصى في عرفهم غاية لا نتيجة . بمعنى انهم لا يعيشون قبل أن يفكروا في وضع
قصه ، لا ينتظرون حتى تنضج الحياة مادة القصة في عقولهم ونفوسهم ، ولهذا
تخرج أعمالهم فجأة وسرعان ما تنبذ وتموت

ان القصصى الاجنبى يعيش ويختبر ثم يكتب . يلاحظ ويدون ويحتزن
ثم يكتب . يحوب الشوارع والازقة والمنتديات العامة ويتصل بالناس
ويتحدث اليهم ويراقبهم ثم يكتب . يلقى بنفسه في أتون المواقف ليحس
ويتألم ثم يكتب . فتخرج أعماله ناضجة مليئة بفاضة وقوة حياة !

أما عندنا فالقصصى يرسم لك شخصية يزعم انها مصرية فتشعر لفورك
بضعفها وهزلها وتوقن أنه لم يتصل بصاحبها قط . ويرسم لك حياً مصرية
فتدرك انه لم يطرقة أبداً . وقد تلمح من خلال صورته بعض ألوان مصرية
موزعة مما يعلق بمخيلة كل فرد منا ولكنك عبثاً تحاول ان تجد فيها أثر
الدراسة المستفيضة وأثر الملاحظة العميقة وأثر الصلة الوثيقة بين الكاتب
وبين الصورة التى اعتزم رسمها

وليس العبرة فى أن نضع القصص ونحن جلوس الى مكاتبنا بل العبرة
كل العبرة فى أن نعرف كيف نلاحظ الحياة وكيف نصبر على هذه الملاحظة
وندقق فيها وتتخير من تفاصيلها الاجزاء الصالحة للعمل الفنى

القصصيون فى الغرب ينفقون صفوفه شبابهم فى ملاحظة شتى الطواهر

المحيطة بهم ونادرا ما ينتج الفرد منهم قصة صالحة قبل الخامسة والثلاثين أو الأربعين
والقصة بطبيعتها فن موضوعي أكثر منه ذاتي أى فن يتعلق بحياة الغير
كثير مما يتعلق بحياتنا نحن . فلكي نحسن النظر فى حياة سوانا يجب أن
نعيش معهم ونفهمهم ونتصل بهم اتصال حب وعطف وإدراك

وقد يستطيع القصصى الناشئ أن يدع قصة ذاتية جميلة يعتمد فيها على
رسم احساساته وميوله الخاصة ولكنه لن يخرج القصة الموضوعية الكبيرة
التي تتحرك فيها عشرات الشخصيات إلا بعد حياة كلها اختبار وألم
عمره فلندع إذن أدب المبالغة والتهويش والتبريج لذوى الضمائر المميته من
النفعيين وطلاب الشهرة من أقرب السبل . ولتؤسس القصة المصرية لا على
قواعد الادب الاجنبى وحده ولا على التصور وحده بل على الحياة نفسها
قبل كل شئ

واليوم الذى يدرك فيه القصصى المصرى ان عليه ان يعيش قبل ان
يكتب ، وان يدرب عقله وبصره على الملاحظة قبل ان يخط حرفا واحداً ،
وان يحب الحياة بأعاصيرها وأمواجها اضعاف حبه الكتابة والانتاج ، هذا
اليوم هو الذى يستطيع فيه ان يحدثنا عن حياتنا الخاصة وحياة الانسانية
العامة حديث صدق وحقيقة وجمال !

(الحقيقة والتصور)

الأدب القصصى ملاحظات وأحلام ، حقائق ورؤى ، بل مشاهد تنطبع في مخيلة القصصى وترسب في قرارة وجدانه ، فإذا ما حاول إبرازها من الظلمة إلى النور ، اختلطت باحساسه ، واصطبغت بمزاجه واتصلت بآلامه وآلامه فخرجت تحمل إلى الناس لونا من ألوان الحقيقة ، وطريقة من طرق تصور هذه الحقيقة ، كما يشعر بها الكاتب وكما تنبعث من خياله الشخصى المستقل وروعة الفن القصصى ليست في رسم الحقيقة بل في نوع تصورهما والاسلوب المستحدث الطريف الذى يتمثل فيه هذا التصور

وأنواع التصور الفنى تختلف من حيث القوة والضعف باختلاف قوة ملكات الابتكار أو ضعفها في نفس الكاتب .

فأنت قد تصف لى مشهداً رأيته بعينى رأسك وملك عليك مشاعرك وأحدث فيك انقلاباً عاطفياً خطيراً فلا أشعر خياله بأى احساس ، ويتناول القصصى الفذ هذا المشهد بعينه فيجزئه تجزئة فنية ماهرة ويقنطع منه عناصره الدخيلة ويعرف كيف يوزع الاضواء على الجوانب الهامة فيه . فيؤثر في أبلغ تأثير بل ينقش الحادثة في ذهنى بحيث لا أنفك أذكرها كلها عرضت لى حادثة من نوعها .

وسواء أراى القصصى الحادثة أم لم يرها ففى وسعه أن يضيف عليها من القوة الحيوية مايقنعنى بأنها وقعت فعلاً ، وانى أمام حقيقة لأمام خيال .
وعلة هذا ان القصصى الكبير ينفذ بعين بصيرته الى ما لا يمكن أن يبصره سواد الناس فيرى الحقيقة الظاهرة والحقيقة الباطنة ، الجسم والروح ، الهيكل

والفكرة، عرض الأشياء وجوهرها مجموعها السطحي وتفاصيلها ، أسبابها ونتائجها .

والحقيقة الواحدة تختلف كما قلنا بحسب تصور كل قصصى ، وكلما استطاع القصصى أن يبتدع فى تصويره أسلوباً مستقلاً اكسب الحقيقة لونا جديدا ورآها فى شكل خاص ، وكشف منها عن نواح هامة وتمكن من تغذية الفكر العام والشعور العام بآراء وعواطف جديدة .

فلكل من الروائيين العظام أسلوب فى تصور الواقع يمتاز به ويؤثر عنه. فالروائى الروسى الكبير فيودور دوستويفسكى يرى الأشياء والأشخاص من خلال الظلمة النيرة التى تسبح فيها الانفعالات فى أبعاد غوار النفس البشرية والروائى الفرنسى جوستاف فلووير يرى الأشياء والأشخاص ساطعة الألوان واضحة المعارف دقيقة التفاصيل تعبر مظاهرها الانسانية العادية عن أعماق الاهواء والميول ومختلف أطيايف الجمال .

وأنا تول فرانس لا يعبأ بتحليل نفسيات أبطاله قدر اهتمامه بأفكارهم وشهواتهم وغرائزهم، وفى وسعنا أن نضرب الأمثلة الكثيرة تؤيد ما نذهب اليه فالحقيقة المجردة اذن ، الحقيقة الشائعة المتواردة التى تلمسها العين العابرة المتعجلة لا قيمة لها من الوجهة الفنية، بل القيمة كل القيمة فى أسلوب تصور الكاتب لهذه الحقيقة ، فى نوع حقيقته هو ، وفى اشعارنا بأننا كنا غافلين عنها ، كنا نجهلها، وانها خلقت على يديه من جديد ، غنية بالجمال المتوارى، حافلة بالأسرار البعيدة التى كان اذ كانا عقلا ، وأوسعنا خبرة وأدقنا نظراً عاجزاً كل العجز عن ادراكها

وليس معنى التصور هو الخيال كلا فالخيال المعروف عندنا يبالغ فى رسم الواقع فيشوهه ، او يضيف اليه إضافات غريبة عنه فينكره .
واما التصور فيتمشى مع الحقيقة لتدعيمها . يقترن بها ويفنى فيها يصب

عليها أضواء حادة تميظ اللثام عن جوانبها كلها .
وعليه فالفن القصصى الممتاز حقيقة طريقة تنبع من التصور القوى .
وصاحب التصور الشامل العميق هو القصصى الفذ ، أما الروائي الذى يأخذ
بظاهر الأشياء ويهتم برسم الأخلاق والعادات والتقاليد رسماً فوتوغرافياً
محضاً فرجل يخذعه ظاهر الحياة اليومية ، بل يخذعه نظام المجتمع نفسه ، إذا مجتمع
بحكم قوانينه وأوضاعه يفرض علينا واجبات تحجب خصائص النفس
البشرية عن الابصار .

فالفرد خاضع للمجتمع ولكنه حر حيال نفسه . وهناك من العواطف
والميول ما يخفيه الفرد عن المجتمع كى يباشره سرّاً فى هدأة الوحدة وتحت
جنح الظلام .

وهذه العواطف والميول أبلغ تعبيراً عن جوهر الطبيعة الانسانية من
الأخلاق والعادات المتبعة بين الجميع .

على أن الأخلاق والعادات أوضاع نسبية محضة يطغى عليها سيل
التطور فلا يلبث حتى يمحوها ويبدد آثارها .

وفى وسعنا أن نتخيل قصصياً مصرياً يهتم برسم عاداتنا وتقاليدنا فقط
دون أن ينفذ الى اعماق الروح المصرية وما تشترك فيه مع الروح البشرية
عامة فى كل أمة وفى كل عصر . ان فنه لا بد أن يموت بموت العادات والتقاليد
التي انصرف الى تدوينها

ان وثبة اصلاح واحدة تكفى لسن قوانين جديدة تهدم تلك العادات
وتتجه بالنظام الاجتماعى نحو أساليب وأوضاع أخرى ، فيصبح القصصى
فى حالة كهذه مؤرخاً أو من حفظة الآثار ، أما فنانا كبير افلا .

ونظرة واحدة الى الأدب العالمى ومخلفاته الباقية تثبت لنا صحة ما تقدم

ان الأعمال الأدبية التي خلدت على مر السنين هي التي آثر أصحابها جوهر الحياة على عرضها الزائل ، هي التي تخاطب الاجيال جميعاً وتتوافر فيها حاجات الانسان المطلق مهما اختلفت البيئات ومهما تنوعت أنظمة المجتمع . وانا لا أعجب بقصة (أوديب الملك) للروائي الاغريقي سوفوكليس لأنها تمثل لى العقلية الاغريقية فحسب بل لأنها تتناول « فكرة القدر » الابدية وتطرح المشكلة الانسانية برمتها على بساط البحث . وكذلك قصة (عطيل) لشكسبير لا تسترعى منها أخلاق أهل البندقية وعاداتهم قدر ما تؤثر في أعراض الغيرة الفطرية التي يحلمها القصصى في عبقرية لا تبارى .

وأنا اذ أطالع قصة (الأب جوريو) لبليزاك لا آبه لما يرمهل الروائي من أخلاق البارييسيين وعاداتهم قدر ما انتبع في شوق ولهفة واعجاب حياة الأب جوريو وعظم التضحيات التي يمكن أن تقوم بها الأبوة كعاطفة انسانية خالدة .

وسوفوكليس وشاكسبير وبلزاك كانوا من أعمق القصصين تصورا ؛ لذلك لم تحفل مخيلاتهم بالظواهر فزقوها ونفذوا الى باطن الأشياء فأخرجوها من مكانها فلم يكونوا مؤرخين لعصرهم فقط ، بل فنانيين وعلماء أيضاً . ونحن في مصر والحركة القصصية في مستهلها والقصصى المصرى حائر مضطرب لا يدري أى السبل يسلك ، ولا بأى المذاهب يقتدى أراه يمعن في نقل أخلاقنا الشائعة ، وعاداتنا السطحية المتواردة ، ويغفل جوهر النفس الباقي على الزمن ما بقى الانسان .

فواجهه أن يفصل بين الحقيقة الظاهرة ، وما وراء الحقيقة الظاهرة ، ثم يدمج الحقيقتين في صورة واحدة ليستطيع أن يعبر عن أخلاق عصره وعاداته وعن نزعات القلب البشرى عامة فيتجه بالحركة القصصية نحو الفن الروائى الصحيح

القصة بين الإيحاء والتحليل

— ٣ —

نقصد بهذا البحث دراسة الطريقتين الرئيسيتين اللتين كان لهما أكبر الأثر في إنتاج أروع ما أخرج به العقل البشرى من قصص الى يومنا هذا وهاتان الطريقتان هما : الإيحاء و التحليل

فالقصى الذى يقيم فيه على الإيحاء يتناول أشخاصه من الظاهر فقط ، ويلقى بهم في غمرة الحوادث ، ثم يأخذ في رسم حركاتهم وسكناتهم وملامح وجوههم وضروب حوارهم بحسب ما يطرأ عليهم خلال حوادث القصة من تقلبات وأطوار . فحوادث القصة تتطور ، وكذلك مظاهر الأشخاص .

وما فن الرواى الإيحائى إلا في تحرى الدقة البالغة في وصف هذه المظاهر أثناء سير القصة ، ومن هذه الدقة في الوصف الخارجى ومن تراكم الصور والملاحظات الجثمانية ، ومن تنوع ضروب الحوار وارتباطها بتلك الملاحظات يوحى إلينا القصصى بما يعتلج في نفوس أشخاصه ويشعرنا به ويكشف لنا عن غوامضه ويرغمنا على الاشتراك معه في استخلاص حقيقة الشخصية وجوهرها من مجموع تلك الملاحظات الموزعة هنا وهناك .

فالقصى الإيحائى يعرض مختلف ألوان الحياة ويفتن في هذا العرض ، ثم يدع القارئ لنفسه يستنتج من ذلك العرض الصادق الأمين ما شاء . وهذا الضرب من الفن يكسب القصة شيئاً من الغموض الفاتن المحاط

بالأسرار . إذ يضطر القارئ إلى انعام النظر في ملاحظات الروائي وربطها بعضها ببعض الآخر والتنبه إلى علاقة كل منها بالآخر وعلاقتها جميعاً بموضوع الرواية واتجاهها وتطورها كيما يحس مفعول الإيحاء كاملاً في خياله وعقله ، وكيما يستجلي بواطن الشخصيات وينفذ ان استطاع إلى صميم فكرة الكاتب .

ومن القصصيين المولعين بهذا الأسلوب من يوحى إليك بدخائل نفوس أشخاصه بسهولة متى كانت القصة بسيطة والنفوس بسيطة ، شائعة العواطف عادية الأهواء . ومنهم من تلقى أشد الصعوبات في ملاحقة مدى ملاحظاته والاحساس السريع بقوة إيحاءاته نظراً لغرابة ميول أشخاصه وتعدد عواطفهم وتضارب آرائهم ونزعاتهم . وعندئذ لا تجد مفراً من إعادة تلاوة قصته مرات للالمام بشتى الملاحظات الموزعة ، والتثبت من أثر كل منها في الآخر . وارتباطها بالمجموع توصلنا إلى معرفة الحقائق النفسية التي غابت عنك في أول تلاوة

ومجرد اعتماد الروائي الإيحاءى على القارئ وعدم استفاضته في الشرح واكتفائه بالإشارات الظاهرية كدليل على مايقع في الباطن هو نفسه ضرب من السحر بما أنه يفرض علينا حل عدة رموز قد لا يسع القصصى ذاته أن يحلها . وهل الحياة في الواقع إلا سلسلة رموز ؟ ...

انك لتمر بمختلف الحوادث والشخصيات فلا تبهرك منها غير تلك العلامات الظاهرة المختلطة التي ليس في مقدورك ان تحكم على الناس الا بها

ومن ذا انذى في وسعه أن ينفذ توا الى قرارة النفوس ؟ ..
كل ما في ممكنة الانسان فعله ان يستعين بما أوتي من فكر وذكاء للنظر

فيما وراء تلك العلامات ، تفهم السر البشرى الدفين عن طريقها وحدها ..
وهذا هو عين ما يطلبه اليك القصصى الايحائى فى قصته .
وانه ليخيل الى ان من المحال على الفرد الساذج ان يفهم القصة
الايحائية حق الفهم

وكما انه غير قادر على فهم الحياة كذلك فهم تلك القصة من اشق الامور عليه ...
وكثيرا ما يكون الروائى الايحائى واسع الثقافة بعيد مرمى الفكر عميق
الملاحظة مجدداً فى الاسلوب وفى المذهب الايحائى نفسه . وهذا من شأنه ان
يضاعف علاماته ورموزه وأفكاره غرابة واتساعا وغموضا فكيف يتسنى
والحالة هذه للفرد الساذج أن يفهمه ؟ ..

وتلك هى العلة فى ان بعض الاعمال القصصية الفذة يظل بعيدا عن متناول
الجمهور ، ويظل مغمورا فى نظر الادباء حتى يفد الناقد الذكى فيبدد عنه السحب
ويكشف للناس عما غمض منه ويلفت اليه انظار المستنيرين ويقنعهم فى
النهاية بأنهم كانوا حيال عبقرى لم يحسنوا تقديره ، ولم يسعدهم الحظ بفهمه
والانتفاع به

وقد يظن البعض ان القصصى الايحائى ليس من شأنه تحليل العواطف
والاهواء وهذا صحيح من الوجهة النظرية فقط ، ولكن الحقيقة ان ملاحظاته
الظاهرية يجب ان تكون من الدقة والغزارة والصدق والامانة والشمول
بحيث تستوفى الشروط اللازمة لاشعارك بتلك العواطف والاهواء وما
يلحقها من تطور وتقلب وتبدل ، وهذا هو التحليل بعينه يقوم به الروائى
الايحائى الكبير على خير وجه ولكن بطريقة غير مباشرة ...

وأبلغ دليل على ذلك فيدوردستوفسكى القصصى الروسى الاشهر ومن
كبار اصحاب طريقة الايحاء . فهو لا ينفك يرمز الى عواطف اشخاصه
وميوهم بشتى الملاحظات ، فهل معنى هذا انه لا يحلل ، وان ملاحظاته لا تعطينا

صوراً محللة كاملة لأشخاصه ؟ كلا . إذ كل ما في الأمر أنه لا يحلل نفوس أبطاله
جهره ولا يسهب في شرح عوالمهم وأن كان يرمى في قصصه دائماً إلى التحليل
لا على لسانه هو بل على لسان أشخاصه وبواسطة الحوادث التي يقومون بها
وعن طريق ملاحظاته لهم بدل الاستفاضة في التحليل المباشر

إذن فدستوفسكي وأقرانه يعرضون الحياة في حركاتها المطردة ويجهدون
في وصف هذه الحركة وما يحفها ويتصل بها من متعدد الألوان كما تبدو لعين
الملاحظ الدقيق دون أن يعترضوا سيرها بالتعليق والشرح

وهذه فضيلة عظيمة . إذ التحليل يبرز للقور شخصية الكاتب ، ويمزج
بينها وبين شخصيات أبطاله فيشوش سيرها الطبيعي ، ويعكس مجراها العادي
ويجرد القصة من عنصر الوهم الذي لا بد من توفره لصب روح الحياة فيها .
وليس ثمة شك في أن القصص الذي يتحدث كثيراً ولا يفتأ يعلق
ويشرح يحول بيننا وبين رؤية أبطاله على حقيقتهم بل يحل عقله محل عقولهم
ولا يستطيع اقناعنا بأنهم يعيشون بمطلق ارادتهم في حين أن هذا هو
الشرط الأول لكل قصة فنية صالحة .

وقد نبغ في الفن القصصي الإيحائي معظم أدباء الروس كدستوفسكي
وانطون تشيخوف وليون تولستوى ومكسيم جوركي وبعض الإنجليز وعلى
رأسهم جورج اليوت وديكنز

أما الفرنسيون وهم أمة المنطق والوضوح والتناسب فيميلون بطبيعة
مزاجهم إلى التحليل وأن كان جوستاف فلووير وستندال وجي دي موباسان
واميل زولا من أروع القصصيين في المذهب الإيحائي واساتذة الروس
فيه بالرغم من افتقار أعمال البعض منهم إلى وفرة تلك الملاحظات الدقيقة
التي تنم عن الميول النفسانية المركبة المعقدة التي نحسها على الدوام

أسسه
على الإيحائيين

في كل قصة روسية عظيمة .

والفن التحليلي هو نقيض الفن الايجائي . والقصصى التحليلي يهجم على العواطف مباشرة . ينتزعها من ظلمات النفوس ويبرزها ما استطاع إلى الخارج ، ويريق عليها ضوءاً ساطعاً من التحليل ، ويفتن في شرحها وبحث اجزائها والتعليق عليها كأنما هو يمدد على المشرحة النفس البشرية بدل الجسم والسرف في روعة هذا الفن — على ابتعاده عن رسم المحسوسات — انه يتحرك في محيط النفس فحسب وان يحيط النفس سرى ضبابى شعري بطبيعته ، فلها ان يصب الكاتب عليه نور تحليله الواج تنبهر أنت وتأخذك هزة نشوة وإعجاب وفرح لاستطاعتك الوقوف على ما قد طالما حيرك وأمضك من ظلمات تلك الميول المدلهمة المتضاربة في قرارة نفسك

وفي هذا بلا شك اشعار للقارىء بمعنى القدرة . قدرة الانسان على فهم نفسه ليتمكن من فهم الآخرين . ولهذا اعجب الفيلسوف الالماني نيتشه بالأدب اللاتينى عامة والفن القصصى الفرنسى التحليلى خاصة

فكان للفن التحليلى وجهة نفعية ترمى إلى تدريب الفرد على النظر في ميوله نظرة عقل وفحص وادراك كما يتسلط عليها ويسودها ويوجهها وجهة عملية نافعة ولا يعود ينخدع بتقلباتها في نفسه وفي نفوس الغير .

وبما أن غاية هذا الفن معرفة النفس لا بد أن يتخذ له العقل سلاحاً . والعقل هو الذى يغلب في القصة التحليلية على ملكات الاستشعار والتخيل وتسجيل الملاحظات الظاهرية الموحية .

ومن خصائص العقل المنطق والتحليل والتقسيم والبناء والوضوح والتسلسل والنظام . وجميع هذه العناصر تتوافر في القصة التحليلية الصالحة . ولا ينبغي أن يغفل القارىء عما فى هذه العناصر من جمال إذ هى التى تجعل

من القصة شبه تمثال أغريقى بديع متسق الخطوط متناسب الأوضاع .
والواقع أن القصصى التحليلى يكتب متجه البصر نحو النفس والمجتمع
معاً أو بمعنى آخر هو يحلل النفس لىخدم الفرد والمجتمع . بينا القصصى
الايحائى لايحفل بغير تصوير الحياة كما يراها ثم يدع لقارئه فرصة التحليل
والانتفاع .

ومعظم القصص التحليلية يتفادى واضعوها خلق شخصيات متعددة .
ولا يختارون لها غير واحد أو اثنين أو ثلاثة أبطال يمعنون فى دراستهم
ويحاولون بواسطة الاسهاب فى تحليلهم إعطاء صور واضحة منهم قد لا يكون
فى المستطاع استكمال مختلف مناحيها دراسة وتحليلاً لو ان الشخصيات تعددت
وتشابكت كما فى معظم القصص الايحائية .

ومن جهة أخرى فالقصة التحليلية لا تعنى برسم الشخصيات قدر ماتعنى
برسم حالات نفسانية خاصة .

ومن البديهى أن وصف حالة نفسانية لا يتطلب من الكاتب الاكثر
من خلق الشخصيات .

وهذا الفن يتمثل فى قصة (البرنيس دى كليف) لمدام لا فاييت
و (ادولف) لبنجامان كونستان و (دومنيك) لاجين فروماتان و (الشهوة)
لسانت بوف و (التليذ) لبول بورجيه . وفى طائفة أخرى من القصص
الفرنسية العصرية التى يضعها كتاب ينهجون هذا المنهج الفرنسى التقليدى
أمثال (جاك دى لا كريتيل) و (فرانسو مورياك) وغيرهما .

والذى نرغب فى الاشارة اليه أن جميع هذه القصص وان كانت تنحدر
من ينبوع واحد إلا أن كلا منها يحمل طابع صاحبه المستقل .

بل إن هذا النوع التحليلى نفسه قد نما وازدهر وتجدد فى هذه السنوات

الأخيرة واستطاع — لارتكازه على العقل — ان يستمد حياة جديدة من
محصول الثقافة العصرية ، وان يساير أحدث تطورات العلم الحديث والفلسفة
الحديثة لاسيما في قصص (مارسل بروسست) التي نلح من خلال أسلوبها
الطريف وتحليلها البعيدة الغور — الدائرة حول تصوير ما يرسم في ذاكرة
الانسان من بقايا المؤثرات التي علقت بحواسه سالفاً والتي تخلق اليوم عواطفه
وميوه — آثار تعاليم الفيلسوف (هنرى برجسون) في نظرية التطور الخالق
ومغنى الزمن والاهتداء بالبصيرة ، و آثار تجارب العلامة (فرويد) في طبيعة
الأحلام وأسرار العقل الباطن

ها نحن قد بسطنا للقارئ خلاصة المذهبين اللذين انتجا خير ما عرف
من قصص حتى اليوم .

ونحن لا نؤثر مذهبا على مذهب أو طريقة على طريقة إذ المسألة في
صميمها مسألة مزاج ، والفن جوهر لا يتجزأ مهما اختلفت الاشعاعات المنبعثة منه
وليس العبرة في أن تكون قصصا ايحائيا أو محلا بل العبرة كل
العبرة في أن تكون فنا . صادق النظرة إلى الحياة ، قوى الشعور بها ، أمانة
عليها ، قادراً على التعبير عنها ، نافذا إلى أعماق اعماقها ، ولك بعد ذلك أن
تختار أى المذاهب والطرائق شئت .

ناجى الشاعر

فى مصر اليوم نهضة ادبيه جديده يضطلع باعبائها جيل جديد . ولكن هذا الجيل مغبون ، فلا الصحف والمجلات قدرته حق قدره واخذت بيده وساعدته على ابراز مواهبه - كماهى الحال فى الغرب - ولا الناشرون اقبلوا عليه وشجعوه ومكنوه من اقتحام الجمهور ومخاطبته

وبرغم هذه العوامل المشبطة استطاع هذا الجيل ان يشق طريقه ويثبت شخصيته ويبدع من الاعمال الطريفة ماسوف ينضج ويبقى على مر الزمن وفى وسعى أن اذكر اسماء طائفة من كتاب الشباب قامت بعدة محاولات ادبية تتم عن ثقافة واسعة ونزعة ابتكار اصيلة ورغبة فى التجديد صادقة ، ولكنى اكتفى اليوم بالتحدث عن احد افراد هذه الطائفة وهو الشاعر النابغ الدكتور ابراهيم ناجى على ان اعود فى فرصة اخرى فأفنى مالم سائر اخوانه على من واجب التقدير

للدكتور ابراهيم ناجى شخصية غريبة تستهوى كل من اتصل بها . شخصية شاعر قلق يحيط بها ويغمرها السر الذى قذف بها الى هذا العالم والذى لا تنفك تتساءل عنه وتطلع اليه مبهوتة بما ترى حولها من الم وجمال ، شخصية خفيفة مجنحة لا تلبث ان ترف على الاشخاص والاشياء حتى تحلق فى اجواء

غير منظورة اسعد ما تكون بالصمت والتأمل والصفاء

تلقى بالدكتور ناجي قشعر كأن نسيماً منعشاً يهب عليك ، وتصاخه
فكانما هو يفتح صدره لك ، وتجلس اليه وكأنك في حضرة روح حائر ،
وتستمع لحديثه فيأخذك العجب من طهارة قلبه وبراعة نفسه وسلامة طويته
وعذوبة صوته وطلاقة محياه ، فتذهل ويتضائل شخصك في عين نفسك ويعز
عليك نقصك ولا يغريك في النهاية الا يقينك بان الخير الذي غادرك استقر
في سواك وتمثل نابضاً حياً في قلب هذا الشاعر النبيل الشاب !

وتحدق اليه فتري رجلاً هزلاً متوسط القامة منكمش الأعضاء اصلع
مقدمة الراس ناعس العينين مديد الذقن أشبه بالصورة التي نعرفها للشاعر
الايطالي دانونريو ، يمشى وكأنه يتعثر ، يصمت وكأنه غير موجود ، يقبع
في ركن من القهوة وغليونه في فمه وكأن سنة من النوم قد استغرقت . ثم
يتكلم بغتة ويفيض ولا يفتأ يتحرك ويتلفت ويلوح بذراعيه تلويحاً عصيباً
متداركاً فتحس لفورك رحابة نفسه واضطرابها وضيقها بما تحمل .

وتسمعه يجادل ويحتد وصوته ابداً صريح وجبينه ابداً منبسوطاً لا بتسامه
الريقة لا تفارق شفثيه ، وعينه الحاملة اصفى ما تكون محبة وعطفاً فيخطر لك
أن تداعبه بنكتة ظريفة ، وسرعان ما يتبدل ويستضىء وجهه ويتألق وتشيع فيه
نضارة معبودة كنضارة الأطفال ، فيأخذ في ارسال النكتة تلو النكتة
حاضر البديهة عبقرى الفكاهة جم الحيوية يضحك ضحكات حرة عريضة
كانما الفرح كله قد اجتمع في فؤاده ، وكأنه قد نسي في لحظة واحدة كل
ما استشرفت عليه نفسه من هم الحياة !

والذي يسحرك في ناجي انك عشتا تحاول توجيه أى نقد خالق اليه ، فهو
يحب الجميع ويخلص للجميع ويخدم الجميع ، ولا يداهن ولا يغتاب ولا يشي
ولا يتكبر . ولولا بعض الحياء في الطبع اكسبه إياه فرط الأدب وراضه

على التجاوز والصفح في حيث لا يجب التجاوز والصفح لما وجدت أى مغمز فيه ، ولقلت انه جاوز المنطقة المقدسة التى تفصل بين الكمال الانسانى المحدود والكمال العلوى اللانهائى !
هذه شخصية ناجى كما عرقها وآمنت بها وكما يقررها ويجمع عليها اخوانه وعارفوه .

« شعره »

|| والشعر الذى ينظمه ناجى يحمل طابع شخصيته . فهو شعر خفيف سهل بسيط لازخرف فيه ولا اعنات يفهمه الكل وينفذ الى القلب تواءم كختلف ألوان الجمال الواضحة الملازمة لحياة الناس

وبرغم هذه البساطة الساحرة فشعر ناجى عميق وجديد . عميق لأن فيه فلسفة أساسها التأمل والألم . وجديد لأن فيه تحليلا عاطفيا أساسه الملاحظة الدقيقة المستمدة من عقل ناضج مثقف .

ومما يمتاز به ناجى انه يشعر بالحياة شعوراً قويا ، ومن شعره القوى هذا تنفجر نظراته الفلسفية الموزعة فى شتى قصائده .

وهو لا يفكر أولا ثم يحس . بل يحس بجميع حواسه واعصابه ثم يرسم ويحلل ويتغنى ومن خلال اغانيه تلمح فكره كعنصر مكمل لعاطفته منطلق من صميم وجدانه .

واذن فعاطفته لا تنحدر من فكره كمعظم شعراء هذا العصر المثقفين ، بل هو فكره الذى ينبع من عاطفته ، لانه شاعر قبل كل شئ ، بالعاطفة يعيش ، ومن العاطفة يستلهم ، وفى سبيل الاحساس بالعاطفة وتصويرها يضرب فى مناكب القاهرة ليلا ويغشى انديتها وملاهيها ويفرح ويهزل ويضحك ويبكى ؛

وأقرب الاحساسات الى نفسه وأشدّها سيطرة عليه بحكم مزاجه كل
ما كان منها رقيقها تشيع فيه المحبة والعطف والشفقة والطيبة والحنين والألم
الملح الدفين الذى يمزق صدر صاحبه فى بطنه وتأمل وصمت

هذه الرقة المقترنة بالشكائية المرة وهذه البراءة المقترنة بالحلم العميق ،
هى صفوة الروح المصرية وهى التى تنعكس على شعر الشاعر وتتمثل فى
شخصته وفى حياته اليومية سواء اخلا الى نفسه أم اتصل بالناس ؟

والحقيقة أن شدة احساس ناجى بالعواطف الرقيقة هى التى تضاعف
شعوره بالألم عند ما يعترض طريقه مشهد مؤثر أو فاجعة رهيبة ، أو مجرد
سماع انسان يشكو أو آخر يستجدى أو ثالث يتظاهر بالسعادة وفى عينيه
أثر مجاهدة الدموع ... !

وهذا هو السر فى تشاؤم ناجى وفى أزمت التردد والسخط التى تنتابه ،
وفى تلك الألوان القائمة السوداء التى تبصرها فى بعض شعره .

فاحساسه الرقيق ينفعل بسهولة وقوة فينمو اليه ويزداد تهرمه وتدفق
منه صرخات الاستنكار والثورة ولكن عقله يكبحها فى النهاية ويرى فيها
رمز القدر فاسمع له يقول :

تمر ذكرى وراء ذكرى وكل ذكرى لها دموع
وتعبر المشجيات تترى من كل واد بلا رجوع

قد صار حب الحياة منا يقنع بالجيفة السباع
وعلم السمع ان يضنا وثبت الجبن فى الطباع

مللت من هاته العوالم مهزلة الموت والحياه

وصورة القيد في المعاصم ووصمة الذل في الجباه

بعينها كذبة الدموع بعينها ضحكة الخداع
ومنحنى هاته الضلوع على صواد بها جياع !
ومما يدل على بساطة ناجى وصدقه وقوة اندماجه في المراثيات وسرعة
احساسه بما يكتشفه وطواعية الوحي الشعري له انه لا يحتاج — كي يرى
ويشعر بالحياة الكبرى — الى الاعتكاف في داره والا كباب على مطالعته
والانطلاق في تأملات فلسفية تجريدية ، وانما يكفيه أن يجلس على مقعد في
قهوة ويسرح أبصاره في السابلة ، ويحلم وهو يقظان كي تمر الحياة بأسرها أمامه ،
فكرة وحركة ، جهاداً ونصباً ، موتاً وبعثاً ، فيتغنى بها ويستعرضها في مثل
هذه الآيات :

جلست يوماً حين حل المساء وقد مضى يومى بلا مؤنس
أريح أقداما وهت من عياء وأرقب العالم من مجلسي

سيان ما أجهل أو أعلم من غامض الليل ولغز النهار
سيستمر المسرح الأعظم رواية طالت وأين الستار ؟

أغمضت عيني دونها خائفا مبتغيا لي رحمة في الظلام
فصاح بي صائحها هاتفا كأنما يوقظني من منام

أنت أمرؤ ترزخ تحت الضنا لم يبق منك الدهر الا عناد
وكل ما تلمحه من سنا يهزأ بالجدوة خلف الرماد ... !
وبعد أن يصف كل ما رأى في فورة ازدهام الحركة المتجاوبة الاصداء

فى الشارع يهرع الى الله ويستصرخه ويتوق الى التسليم والصفاء فيقول :
وفى سبيل الزاد والمأكل نملأ صدر الأرض اعوالا
كم يسخر النجم بنا من عل وكم يرانا الله أطفالا

يارب غفرانك انا صغار ندب فى الأرض ديب الغرور
نسحب فى الدنيا ذبول الصغار والشيب تأديب لنا والقبور
ولكن الغريب فى ناجى أن التشاؤم عنده دليل القوى لادليل الضعف
ورمز الشجاعة لاعنوان اليأس . واذا كان يرى الحياة فى بعض الاحايين
سوداء فذلك لأنه يعرفها حق المعرفة . وهو لم يعرفها الا لأنه أقبل عليها
وخالطها وأحبها بروح شاب قديقول له العقل ان الحياة مظلمة شقية، ولكن
قوة الشباب ماتفتك تغريه بها وتدفعه اليها وتشعره بما فيها من فتنة ومرح وجمال
فشعره يعبر عن تلك الظاهرة التى نصادفها عهد معظم الحساسين من
الشبان اى اقتران التشاؤم بالتفاؤل فى وقت واحد وحب الموت والحياة فى
آن واحد ودقة الشعور بالفناء لفرط الاحساس بالبقاء
والشاب ان هو استطرف خيال الموت فذلك لأنه مفعم بالحياة . وان
هو استعذب الالم فذلك لأنه يصبو الى الفرح وما حبه الاسى والخيرة والعذاب
الارد فعل شبابه القوى وحيويته المتدفقة . وهكذا ناجى فبينما تراه متبرما
بكل شىء إذ به يمجّد كل شىء . فتارة يقول :

ان الكواكب ضغن بي ذرعا وآسيها سُم
ومن العجائب فى زمانك والحوادث تستجم
شكوى الحيارى فى الحياة الى حيارى فى السدم !
وأخرى :

كأن صدر الظلام ضاق من كثرة البث كل حين

يا ويحه كيف قد اطاق شكوى البرايا على السنين

كأنما ينفث الشهب تخفيف كرب يمن منه
كالقلب ان ضاق واكتأب تخفف الذكريات عنه

ما بالها أعين الفلك منتثرات على الفضاء
تطل من قائم الحلك بغير فهم ولا ذكاء ؟ ..
ولكنه وقد ضاق ذرعا بالتقاليد ونضاعنه توب التشاؤم وخرج يلهو
ويمرح كبقية الشباب تسمعه يصرخ قائلا وهو يصف رواد صالة رقص امها
ذات مساء :

فقدوا حجامهم حينما طربوا ودووا دوى البحر صخابا
فاذا استقروا لحظة صخبوا لا يملكون النفس إعجابا

لم لا أثور كمثل ثورتهم لم لا اجرب ما يحبونا
لم لا أصبح كمثل صيحتهم لم لا أضج كما يضجون ؟

لم لا تذوق كؤوسهم شفتى ان الحجى سنى وتدميرى
فى ذمة الشيطان فلسفى ورزاتى ووقار تفكيرى !

يا قلب ضقت وهاهنا سعة ومجال مختبل باغلال
اتقول اعمار مضیعة ماذا صنعت بعمرک الغالى ؟

انظر تر السيقان عارية وترى الخصور ضوامر اتغرى

وترى عيون اللهو جارية فهنا الحياة وانت لا تدري !
أليس هذا هو الشاعر الذى يغلب عشق الحياة فى نفسه على كل عشق ،
والذى يسعى الى الحياة ويعتنقها ويتفانى بها ويشربها روحه وبعلمنا كيف
نتشجع ونغامر ونتألم ونختبر ؟

والذى يكسب نظرة ناجى الى الحياة دقة وعمقا ليست هى فقط غريزته
الشعرية المتوقدة بل ثقافته الواسعة أيضا . فهو بحكم مهنته رجل علم يطالع
أحدث الآراء والنظريات العلمية وبحكم ميله الى الشعر التجديدى رجل أدب
عالمى يطالع الشعر العربى والأجنبى ويقرأ أحسن القصص الأوربية
والأمريكية ويقرأ فى الفلسفة والاجتماع أيضا ويود أن يوفق بين شعره وبين
ما اهتدى اليه من أوجه التجديد عند الغربيين . فتراه ينزع الى الشعر القصصى
حيث مجال الوصف والتأمل والتحليل فسيح فيضع قصيدة (قلب راقصة)
وهى حكاية الشاعر إذ يلتقى فى إحدى الصالات ذات ليلة براقصة مسكينة
فلا يكاد يتحدث اليها حتى يفهمها ويعطف عليها ويوشك أن يحبها ويفضى به
العطف الى الرحمة والرحمة الى الشعور بكل ما فى حياتها من عوامل البؤس
التى تجمع بينها وبين الشاعر فى محيط الألم المطهر ! فيقول :

هاتى حديث السقم والوصب وصفى حقارة هذه الدنيا

انى رأيت أساك عن كتب ولمست كربك نابضا حيا

لا تكتمى فى الصدر أسرار وتحذى كيف الأسى شاء
أنا لا أرى اثما ولا عارا لكن أرى امرأة وبأساء !

(١٠ - صوت الجيل)

عجبا لنا ! فى لحظة صرنا متفاهيمين بغير ما أمد
يامن لقيتك أمس ! هل كنا روحين ممتزجين فى الأبد ؟ ...

ويلاحظ فى ناجى فوق ما تقدم أن التشقف حرره من الثقافة . وان
المعرفة الصحيحة رده الى أصله بدل ان تستعبده لسواه فهو عند ما يعتزم
قرض الشعر ينفذ عن فكره عبء ثقافته وينسى أو يتناسى كل ما طالع
ويسلم احساسه الى سجيته فلا تلح غير شخصيته وغير وحيه يبتكر ويجدد
حرأ طليقا خالصا من شوائب المحاكاة .

وأوضح ما تبدو هذه الظاهرة فى شعره الغزلى والسبب فيها ان الشاعر
عاش واختبر وأحب وتألم وان قلبه أغزر مادة من عقله وروحه أينع ثمرأ
من فكره وانه من ذلك القلب وتلك الروح يستخرج مولدات خياله دون
ما حاجة الى استلهاهم الغير أو التأثر بهم

ولذلك هو يسترسل ويتدفق وينظم الشعر كما يتكلم ويعبر بشعره عما
يحس ولا يسع قارئه إلا ان يؤمن بصدق احساسه وصدق حبه لفرط ما فى
شعره من بساطة الالهام اليومى ودقة الملاحظة المباشرة التى تقنع على الفور
بحقيقة العاطفة وتمكنها .

وهذا مثل من شعره الغزلى يصف حال عاشقين :

هل رأى الحب سكارى مثلنا كم بنينا من خيال حولنا
فمشينا فى طريق مقمر ثب الفرحه فيه قبلنا
وتطلعنا الى انجمه فهاوين واصبحن لنا !
وضحكنا ضحك طفلين معا وعدونا فسبقنا ظلنا !
إن الملاحظة هنا مستقرة فى الشطر الثانى من البيت الثانى وهى التى تشعر

القارىء بأن الحب صحيح وان العاطفة ملتهبة أما الشطر الأخير ففيه من
احساس المحب بالتفوق على الحياة وامتلاكها ما يبعث في القلب نشوة قريرة ساحرة .
وعندما يرهق الألم الشاعر ويبرح به يلتبس الفناء في الحب كما التمس فيه
البقاء فينشد :

يا حبيب القلب يا روح الأمانى لست تدري عطش الروح اليكا
وحينى فى أنين غير فانى للردى ! أشربه من مقلتيكا !
ان فى هذين البيتين من التوق العميق الى الموت ما يشعر بأن الحب هنا
ليس ملهيا فقط بل عاصفا جارفا رهيبا له قوة الموت التى فى وسعها وحدها
انقاذ الشاعر من الحب لأنها عاصفة أيضا وجارفة ورهيبه فيها نفس قوى
العدم والخلاص والخلود المشتمل عليها الحب
وعند ما يذكّر شبابه المتصوح وغرامه الأول ينشد :

ذهب الصبا الغالى وزالت دوحه مدت لنا ظل الوفاء ظليلا
أيام يخذلنى أمامك منطقي فاذا سكت فكل شيء قبيلا !
ويثور بى حبي فان لفظ جرى بضمي تعثر بالشفاء خجولا !

وهذا البيت أيضا :

ياحنانا كيد الآسى الرؤوم وشعاعا يشتهى بعد الغيوم !

وهذه الأبيات :

هات أسعدنى ودعنى أسعدك قد دنا بعد التئانى موردك
فاذقيه فانى ذاهب لاغدى يرجى ولا يرجى غدك
وابلائى من ليالى التى قربت حينى وراحت تبعدك !

وعندما يقصد الشاعر البيت الذي شاهد فيه حبه وسعادته ويراه وقد استحال الى اطلال يصعد من الزفرات والنغمات ما يظل يترافع من الحنين الممزق الى الشكاية المستسلمة الى اليأس الممض حتى يبلغ حد الهوس والخبال ثم يفتر ويتراخى ويغيب شيئاً فشيئاً في لجة الابد . وكل ذلك في قصيدة منسجمة الألوان متماسكة الأوضاع ذات وحدة في الفكر والتصور هي قصيدة (العودة) التي أراها حتى الآن خير قصائده وإليك بعض آياتها :

رفر قلبى بجنبي كالذي سح
وأنا أهتف يا قلب اتند
فيجيب الدمع والماضى الجريح
لم عدنا ؟ ليت أنا لم نعد
لم عدنا أو لم نطو الغرام
وفرغنا من حنين وألم
ورضينا بسكون وسلام
واتهينا لفراغ كالعدم ؟
أيها الوكر اذا طار الأليف
لا يرى الآخر معنى للسماء
ويرى الأيام صفراً كالخريف
نأثحات كرياح الصحراء ؟
وهنا يقبل الشاعر طرفه في أنحاء الدار المتداعية ويقول :

والبلى ! أبصرته رأى العيان
ويداه تنسجان العنكبوت
صحت ! يا ويحك تبدو في مكان
كل شيء فيه حتى لا يموت
كل شيء من سرور وحزن
والليالي من بهيج وشجي
وأنا أسمع أقدام الزمن
وخطى الوحدة فوق الدرج ! ..

هذه الوحدة التي يحسها الشاعر تمشي وهذا الزمن الذي يسمع وقع أقدامه وهذا البلى الذي تنسج يده العنكبوت لاتعبر جميع هذه الصور بتلاؤمها وانسجامها وألوانها الصارخة المخبولة عن روح الدار المتقوضه واحساس الشاعر تجاهها ؟

لقد حرك الوحدة وأيقظ الزمن ونفخ الحياة في الاطلال نفسها وبعد أن استبطن الماضي وأحياه وتملى منه ودع الدار بهذين البيتين :

وطنى أنت ولكنى طريد أبدى النفى فى عالم بؤسى
فاذا عدت فللنجوى أعود ثم أمضى بعدما فرغ كأسى!
هذا الختام الفاجع فى سكونه المهيّب ومرارته المكبوحه وتسليمه التام
ينحدر كالنغم النهائى الخافت الجليل الذى تلتقى عنده وتنتهى اليه وتتجلى فيه
مختلف الحان سمفونيا رائعة !

ليس ثمة شك فى أن نزعة التجديد شائعة فى الآيات السالفة ولكنها
نزعة تتناول جوهر القصيد لا شكله واطاره ، إذ الشاعر ما يزال مقيداً بالوضع
العربى والاوزان الشعرية العربية وكنا نحسب أن نراه ثائراً على هذه الأوزان
محطاً بذلك الشكل التقليدى مبتكراً وضعاً موسيقياً جديداً يتفق وما فى شعره
من إحساس جديد . وفى مقدور شاعر كناجى أن يأخذ بما يسمونه فى الغرب
الشعر المرسل أو الشعر الحر الذى لا يتقيد بالقافية ولا بطريقة النظم
الكلاسيكية المصطلح عليها .

ونحن نسلم أن التجديد فى الجوهر أهم شئ . ولكن التجديد فى العرض
والشكل لا بد منه إذ هو يمنح الشاعر قسطاً كبيراً من حرية الخيال والتعبير
ويساعده على أنماء جميع مواهبه ومضاعفة ذلك الجوهر قوة واتساعاً وإنسانية
هذه دراسة سريعة فى شعر الدكتور إبراهيم ناجى .

وكل ما ابتغيته منها أن أقر بفضل الجيل الجديد وأحفزه لمواصلة
العمل والانتاج والفت نظر الأدباء والمتأدبين الى أن بين شعراء هذا الجيل
شاعر نابغ ، فى شعره بساطة وصدق وتجديد

ولعلنى أكون بهذه الكلمة قد قمت بواجبى نحوه وأفسحت لغيرى مجال
دراسته كى نرى فى يوم قريب عبقرية شبابنا الزاخرة وقد أنزلنا عليها ماء المحبة
والعطف والتقدير تهتز وتربو وتنبث من كل زوج بهيج !

من جهود أدباء الشباب :

« ابراهيم المصرى »

يصدر قصته المصرية الكبيرة

« نهر الحياة »

وهى قصة من نوع جديد فى الآدب العربى تتناول بالرسم الدقيق والتحليل
الصادق مختلف التطورات التى مرت بها شخصية مصرية فى المحيط المصرى .
وتقع فى أربعة أجزاء كبيرة كل جزء فى أربعائة صفحة : —

الجزء الأول — المرأة .

الجزء الثانى — المراهقة .

الجزء الثالث والرابع — الشباب .

يظهر الجزء الأول فى مستهل شهر نوفمبر من العام القادم

فاتتظروا

سلسلة مطبوعات مكتبة سابا ومطبعتها

الأدبية

- ٥ الفكر والعالم للأستاذ ابراهيم المصرى
١٠ التريية والأخلاق للأستاذ يعقوب فام
٤ ثمرات الوجدان للأستاذ محمد طه محمود
ثمرات القلم « سيظهر قريباً »

الزراعية

- ٢٥ الزراعة المصرية جزء آن للمهندس ملك عبده الهورى
١٠ الجداول الحسائية « « « «
٨ تربية الأرانب « « « «

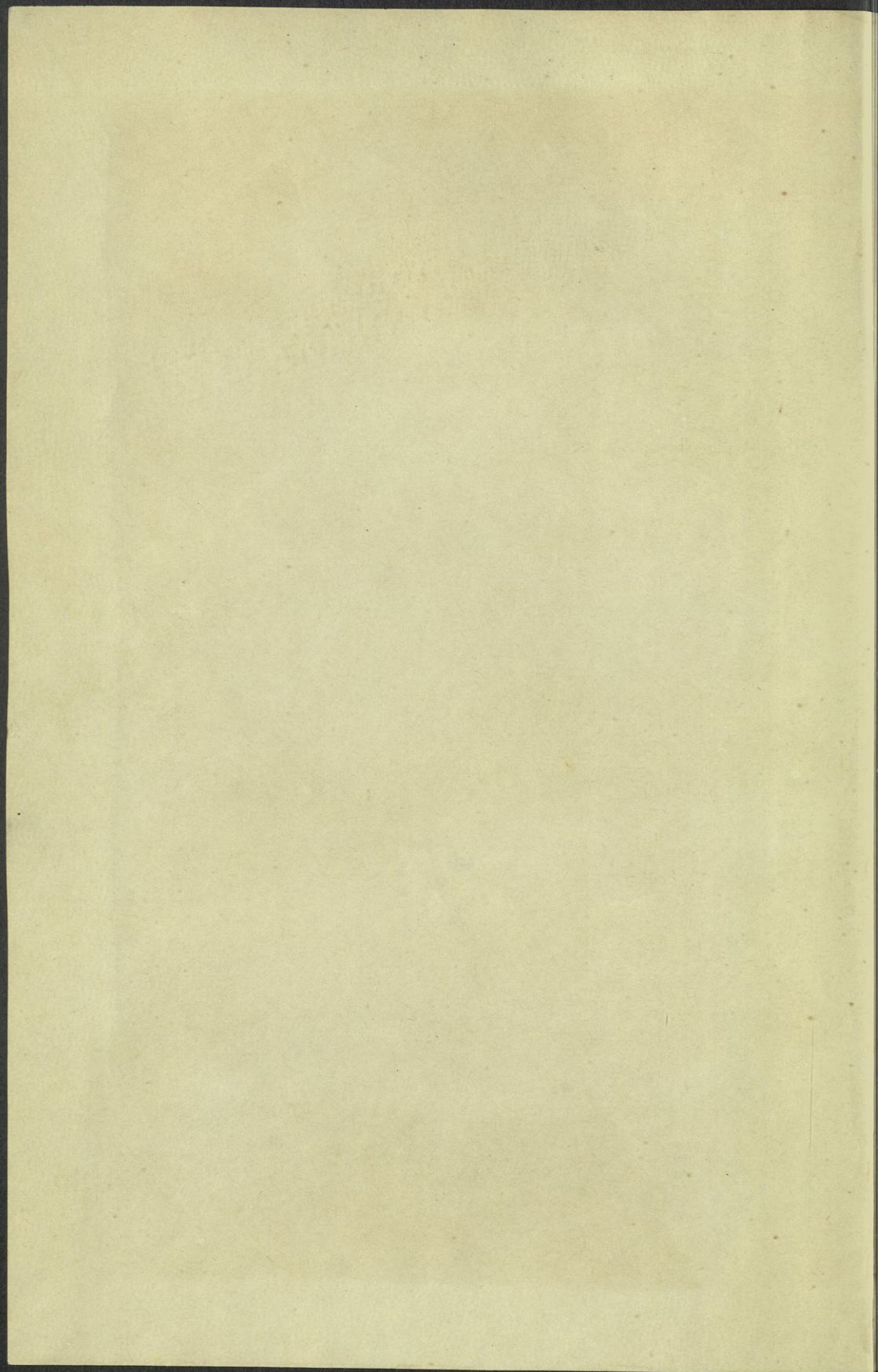
الطبية

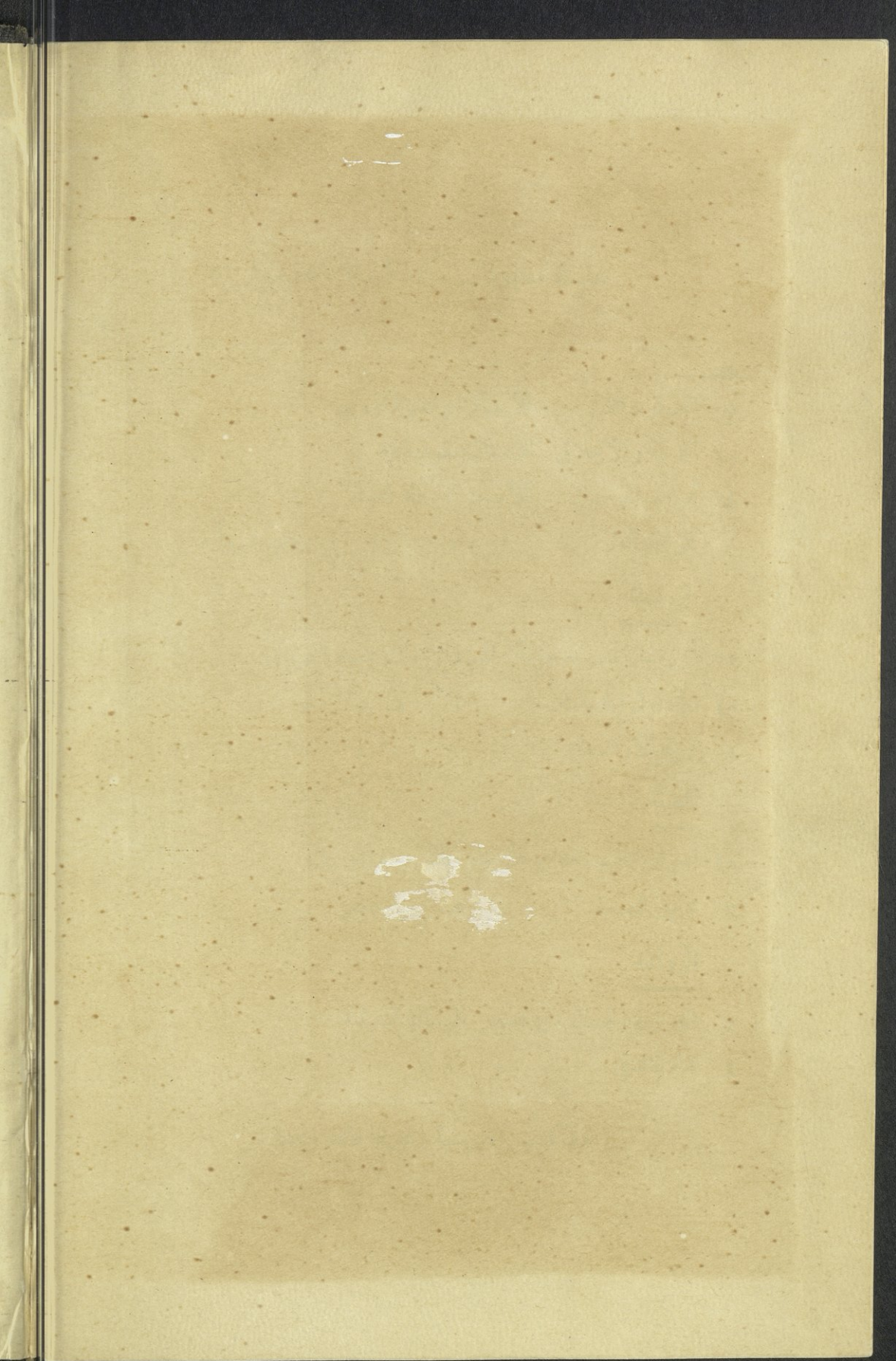
- ١٠ أسرار الطب القديم للأستاذ ملك عبده الهورى
٣ تدبير الصحة « عبد الغنى جعفر

الروائية

- ٤ الدرزية الحسنا من قصص الرحالة الشرقية
٤ فتاة غاندى « « «

وللكتب المدرسية وغيرها قائمة خاصة





892.74:M67sA:c.1

المصري، ابراهيم

صوت الجيل

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01039038

American University of Beirut



892.74

M67sA

General Library

